الأحمر العجوز

د. حسين عبد البصير

دار نشر
أنباء روسيا
Russian News
www.russiannewsar.com

الناشر
أنباء روسيا
Russia News
www.russiannewsar.com
رئيس مجلس الإدارة ورئيس التحرير
د. حسين الشافعى
secertary_ert@yahoo.com
المراسلات
القاهرة – مدينة العبور
44971 مكتب بريد جمعية أحمد عرابي - ص. ب. 72
Tel. & Fax: + (202) 24698170 & 071
+ (20) 01006774027

الإخراج الفني/ أحمد عثمان

لوحة الغلاف إهداء من الفنانة / إيمان الباز

أسرة التحرير / منى فرج- شيماء محمد

الطباعة
دار الطباعة المتميزة
مدينة العبور – القاهرة
Tel. & Fax: + (202) 44789644 & 46

الطبعة الأولى 2005 (الهيئة العامة للكتاب)
الطبعة الثانية 2010 (الحضارة للنشر)
الطبعة الثالثة 2017 (دار نشر أنباء روسيا)
جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة للناشر
لا يحق إعادة طبع أو نسخ محتويات هذا الكتاب إلكترونياً أو ضوئياً دونما إذن كتابي من الناشر.
رقم الإيداع : 1078 / 2017
الترقيم الدولي : 978 - 97 - 476 - 085 - 3

بالتعاون مع

المؤسسة المصرية الروسية للثقافة و العلوم
Египетско-российский Фонд культуры и наук
www.a_rfcs.org

obeikan.com

حسين عبد البصير

الأحمر العجوز (رواية)

دار نشر

www.russiannewsar.com

obeikan.com

obeikan.com

مفتتح

obeikan.com

obeikan.com

تزاوج الرجل والمرأة والسماء والأرض؛
فولدت الأسطورة وانبثقت المياه ونشأت الحياة،
وأمسك الصيادون والرعاة بمفاتيحها وأسرارها المقدسة،
فأصبح البشر مهددين بالموت فى كل لحظة وسكنتهم الوحشة،
وما عادوا يستطيعون المقاومة سوى بالقلب مادامت رغبتهم فى الحب هى رغبتهم فى الخلود،
ومادامت الروح ترفرف ولم تهرب من الجسد لتلتحم بأمها السماء فى رضاع أبدى ليس من ورائه فناء.

obeikan.com

obeikan.com

١

دشـــرُور*

*دشرُور: كلمة مصرية قديمة تعنى "الأحمر العجور"، وهى صفة لفرس النهر المعمَّر(الأحمر العجوز).

obeikan.com

obeikan.com

بِر مُورا[1]

كان المطر ينهمر متعاظماً، والرياح نشطة تحرك كل شيء، والهواء يصفر وسط البحيرة، والسماء ثائرة. تعبث العواصف المطيرة بسماء القرية وأرضها، وتعصف الرياح بأوراق الأشجار، معلنة عن نهاية الخريف وقدوم شتاء عاصف محمل ببرودة قاتلة. سكن كل شيء في حضن الأرض الرطب.

تبدو القرية صامدة في وجه الرياح ذات الضربات القاصمة، متدرجة على شط البحيرة، على هيئة أكواخ بسيطة مصنوعة من أعمدة خشبية وبوص ومسقوفة بأنصاف جذوع نخيل وطين وقش. كفل لها انخفاضها النسبي ووجودها على شط البحيرة المنحدر، النجاة من قبضة الأعاصير المدمرة في الشتاء.

أخذها عوماً في النهر حتى وصل عن طريق فرعه الضيق الصغير إلى موضع القرية الحالية التي لم يكن لها أي أثر على الإطلاق، وصلها قبل أن يكون هناك شيء.

إنه الجد آناتم المغامر، أُعجب بمكان متميز على ضفاف البحيرة؛ فأسّس القرية.

ذات يوم بعيد، مرّ به قوم من الغجر في إحدى رحلاتهم غير

[1] بِر مُورا : أي "بيت مورا"، نسبة إلى ربتها مورا ربة الخصوبة والحب العظمى.

المنتظمة، استضافهم، وحين أوشكوا أن يرحلوا لاستئناف ترحالهم الذى لا ينقطع أبداً، تعلق بإحدى بناتهم، رغب فى الزواج منها، رفضوا، أصرا على الزواج، قاطعها أهلها لزواجها من غير جنسها.

أراد آناتم أن يؤمِّن القرية؛ حوّل مجرى النهر عنها وأبعده قليلاً إلى الشرق حتى تنجو من ويلات الفيضانات المدمرة. وأصبح من الممكن التسلل إلى النهر على قارب صغير من أعواد البردى عبر مجرى مائى صغير وسط أحراش البوص والبردى المتكاثفة. لا ينجو القادم إلى هذا الممر المائى الصغير من هجمات الطيور المائية الكبيرة الشرسة أو الصغيرة المشاكسة، وتعوق حركة قاربه النباتات المائية ذات الزهور النضرة اليانعة شديدة الكثافة والحيوانات المتسلقة والزواحف والحشرات الطائرة.

كان أول من خرج إلى النهر عبر هذا الممر الوعر، واستطاع قهر ما واجهه من صعوبات والسيطرة عليها، وعاد إلى القرية من الطريق نفسه، واحتفل أهل القرية بالقادم العزيز بعد غياب طويل ظنوا معه أن مكروهاً أصابه.

اصطاد أحد أفراس النهر، نصب ساقيه فى مدخل القرية للقضاء على الخوف فى قلوب القادمين من أصلاب أهل القرية، واستخدم شعره فى صناعة الأسواط، وأفاد كذلك من جلده وأنيابه.

من نسله انحدر أونان، آخر خلفائه المتبقين من ذريته، بعد أن غدر الوباء والزمن بالجميع وفتكا بهم فى سنوات تبعد عن الذاكرة كثيراً وتنوء بحملها الكواهل والأعمار.

فى الفجر، يشدون قواربهم الصغيرة ومراكبهم الشراعية على سطحها بحثاً عن الرزق، ومع اقتراب المغيب، تصل القوارب والمراكب محمَّلة بالكثير من الخيرات. تفرح القرية.

تجرى مياه النهر صافية، يقول سيد القرية، أونان:"منذ عصر أسلافنا الأوائل، ونحن نحافظ على الأشجار والحيوانات وكل شىء داخل القرية. عندما نفكر فى الأماكن وفى أرضنا، تلتاع قلوبنا. ففى كل مكان أذهب إليه، أشعر أننى بحاجة ملحة إلى البكاء الدائم! كل تاريخنا مسجل فى هذا المكان".

تطل الخفافيش على القرية ليلاً، ويملأ أعينها الدمع، وتحبس أنفاسها الحارة، وتحرسها من أى دخيل أو قادم غريب...

obeikan.com

obeikan.com

البحيرة العجوز

بحيرة أزلية معمرة؛ رقعة مائية ضخمة، تكوّنت بمعجزة وسط الصحراء القاحلة. بقرة السماء على الأرض، سماء سائلة، اختبأ فيها الابن الذكر، ذات يوم، صار الشمس التى تلد الحياة واليوم كل نهار، فى شيخوخته، أصبح القمر بطريقة غامضة، متخذاً صورة فرس النهر، هرباً من شكله المتمرد عليه دوماً.

البحيرة فيض من المحيط الأزلى السماوى، أم جميع الأرباب، واهبة الحياة لكل البشر. وضمنت بقاء القرية المستمر، على عكس أغلب القرى الأخرى التى أصابها الانقراض، كذلك ضمنت لها الخصوبة والحيوية وجعلت أرضها خصيبة عبر طرح النهر الفيضى. وتكفّل الابن، الذكر القوى، باستمرار الحياة والخصوبة والتكاثر لكل الكائنات، من هنا تجىء أهميته. تقل فى مستواها عن مستوى سطح البحر مسافة كبيرة. ولها أكثر من ألف اسم ويحمل كل جزء منها تاريخه الخاص.

تلتحم بالنهر عبر فرعه الصغير الضيق، فى موسم الفيضان، يصعب على أحد مقاومة هذا المجهول القادم بموره الهائج وطميه القاتم وغضبه الثائر القاتل. تعصف الأمواج بالأكواخ القريبة من الشاطئ، يهجرها أهلها بعد فشلهم فى نقلها إلى مدرجات عليا بعد إخلائها، ويعودون إليها بعد حين، بعد أن ينحسر الفيضان، وتعود البحيرة إلى حالتها الطبيعية، هذا إن لم يجرفها التيار معه فى اهتياجه الطائش.

يثور النهر بين الحين والآخر، يجرف فى طريقه كل الأشياء، يرتفع الماء فى البحيرة، يقلب القوارب الصغيرة السابحة على صفحة الماء أو الراسية إلى شاطئ البحيرة، يغرق الأكواخ الكائنة على مدرجاتها الشاطئية، يموت من يموت ويهلك من يهلك، ويهجر كوخه من يهجر، ويتركه فريسة لفيضان النهر الهائج الذى يقضى على كل ما يعترض طريقه، وعلى بحيرتهم الهادئة المنخفضة عن مستوى النهر الذى يصل فيضانه إليها عبر فرعه الصغير الضيق أو من خارجه.

obeikan.com

فرس فى الليل

تهطل السماء بغزارة كاسحة، تغرق المساحة المنحصرة بين سطح البحيرة وقبة السماء القاتمة، يصبح الماء متصلاً بينها وبين الأرض. يزداد زيادة كبيرة، مشكلاً دوامات مائية ثائرة فى دفقات متعاقبة لاهثة، تكثر وسط البحيرة، تتوالى متسارعة نحو الشاطئ، ثم ترتد ثانيةً بنفس السرعة لدى اصطدامها به. تتخلى البحيرة عن هدوئها الأثير، تصخب تحت نوبات المطر المتساقطة فى انهمار وحشى، مستسلمة دون أدنى مقاومة لضرباتها النافذة، تتلاطم الأمواج وترتفع مسافات طوال.

مذ مالت الشمس إلى المغيب، وهو قلق وحائر للغاية، يسبح فى البحيرة سبحات تقليدية تفتقد حقيقة روحه المغامرة والمتوثبة، فى تراتب ممل، يبغى مرور الزمن وكسر رتابة الحيرة والقلق والإطاحة بهذا الوقت العصيب القاتل. أهذه الدقائق القليلة تفعل بك هذا يا سيد البحيرة؟!

تركت أنثاك تلد، لم تستطع مشاهدتها وهى تحت وطأة هذا الفعل القاتل. تحلم بأن تنجب لك ذكراً هذه المرة، تعوض به طوفان الإناث الكثيرات اللواتى رزقت بهن، وإن جاء ذكر، لا يعيش طويلاً، ويكون مكوثه فى هذه الحياة، مرهوناً بزيارة الموت للبحيرة، وتسلله من أحد أبوابها السفلية العديدة، يحدث هذا فى الظلام عادة، وأنت

نائم والوليد إلى جوار قلبك، تحس أثناء أحد احتضاناتك إياه، بأنه لا يتنفس، لاحس ولا حسيس، يشملك الحزن، وتعلم أن رسول الموت تلقفه فى أول مراسم زيارته، تلقاه فى أقرب نقطة، قتله بخنجره المسموم دون أن يدميه، ونسى أنه أدمى قلبك -أنت ولا أحد غيرك- فى نفس اللحظة كعادته. وبذلك تفقد الذكر فى إثر الآخر. مأساتك كبرى. وعسى أن يحلها لك، مقدم ذكر جديد، يبقى لك، ويحيا فى كنفك الممتلئ الفارغ.

يبدو الجو مظلماً تماماً، غاب القمر عن السماء هذه الليلة، وارتحل إلى مخبئه السرى الذى لا يعلمه أحد.

برز رأسه الكبير الضخم فوق سطح المياه الهائجة، لم تشغله ضربات المطر القاتلة، هى أهون عليه من هول الانتظار وألم المواجهة، صاح صيحة صاخبة محاولاً زفر كل الغضب والقلق والحيرة من صدره، اهتزت لها جنبات البحيرة فى جوف الليل.

حين اكتمل خروجه من الماء، فغر فاه، امتلأ بماء المطر الغزير، أفرغه فى ضجر واضح، ثم صاح صيحات متعاقبة فى نوبات صارخة.

اجتاز أدغال البوص والبردي، تدرج فى صعوده مدرجاتها الشاطئية، وابتعد عنها شيئاً فشيئاً، خطا متكاسلاً نحو شاطئها البعيد.

خرج إلى فضاء الأرض البراح الموحلة، داست أقدامه الثقيلة فى طريقه كل الحشائش والأعشاب والنباتات القصيرة، سائر لا يلوى على شىء.

لم يمر بهذه الحالة من السوء والضعف من قبل. ما الذى أصاب سيد البحيرة؟! يتحكم فيها وفى كل ما بها من كائنات، واكتسبت

أهميتها من وجوده، فنُسبت إليه، وأُطلق عليها "بحيرة الأحمر العجوز"، أو "بحيرة العجوز" اختصاراً.

هو الشمس والنهر والأرض والقمر والنور والقوة والذاكرة فى آن واحد، ومع هذا يقلق!!

رفع رأسه نحو قبة السماء. تلاشت ملامح القوة ومعالمها من وجهه، صار وديعاً للغاية، بان خائراً تماماً، تكاد طيات رقبته السميكة تتمزق من شدة تصويب وجهه إلى أمه السماء فترة طويلة تمر عليه مؤلمة.

انطلقت صرخة أنثاه من أعماق البحيرة، مجلجلة، فدمعت عيناه الجاحظتان، وأوشكتا أن تخرجا من محجريهما. ساهم ازدياد المطر المنهمر فى تعميق قلقه وحزنه، اهتاج لونه الأحمر كنار حارقة بمضى الوقت.

خطا خطوات واسعة على الأرض المعشوشبة المبتلة، منكس الرأس، هز ذيله القصير السميك، محاولاً التنفيس عما يجيش به صدره من ألم. ألقى بجسده الضخم على الأرض متمرغاً حتى سقط فى منطقة موحلة تشبه البركة الصغيرة، كوّنها المطر المتساقط، فاستكان لها هرباً من زخات المطر المتكاثفة عليه، وفيضانات الأخيلة الحارقة المؤرقة، نام على ظهره مستسلماً، فاقداً أية رغبة فى الحركة أو الخروج من هذا المستنقع. تنثال الدموع من عينيه مع انهمار المطر المتعاظم.

ترك نفسه لدغدغة الحلم وخدره اللذيذ يهبطان به، تخيله ذكراً، وأطلق العنان لخياله، هاهو يحمله فوق ظهره ويشق البحيرة،

ويسير وراءه قطيع الأفراس، من الذكور والإناث على السواء، ولن يتخلف عن موكبه أحد، يعلمه كيفية الهجوم والمناورة والمراوغة، ويستجيب الصغير فى منتهى السرعة، وكذلك كيف يحكم ويسيطر ويتسيد، وأيضاً كيف يحب.

توقفت دموعه المنثالة تدريجياً، تعلو شفتيه ابتسامة مبتسرة، أكَّد لنفسه أنه سوف يصطحبه معه فى كل تنقلاته حتى يحميه من رسول الموت هذه المرة، لن ينام ككل مرة ويتركه فريسة وحيدة فى الظلام، فسوف يبدِّل نظام حياته، ولن ينام فى الليل مطلقاً، سوف ينام بعض الوقت نهاراً، ويصحو ليلاً، يحرس ولده الصغير، لا يغادره أبداً. سقط المطر عليه بشدة، فأفاق من حلمه الأثير المراوغ.

يا فرس الأفراس المعمِّر،

يا أيها الذكر العظيم،

يا قوى الإخصاب،

يا سيد الجزر الغارقة والطافية معاً،

يا من أمه السماء،

يا من جئت بالشمس المباركة من الأمواج الشرقية البعيدة،

يا أيها الذى خرج من المياه الأزلية المقدسة،

اهدأ،

لا تقلق.

هل يأتى الفرج مصحوباً بالبشارة المبتغاة، ويكون المولود ذكراً؟..يكبر ويداعبه الأب، ويلقنه أصول كل شىء تعلمه فى حياته المديدة، ومن ثم يعتلى "عرش الأحمر العجوز" من بعده خلوده إلى

الراحة ودخوله عالم السكون، فى الغرب الجميل، فى مملكة الحق، يخشى أن تضيع مملكته بين أزواج بناته الكثيرين، فلو جاء ذكراً كما يتمنى، سوف يصبح أبرز عناصر القطيع المقاتلة والمطاردة كل من تخول له نفسه الاقتراب من فضاء البحيرة العريض: بحيرة أفراس النهر الشرسة.

تلقت، برفق، إحدى إناث الأفراس المساعدات، الفرس الوليد الهابط من بطن أمه فى حجم مخيف حقاً، ثم ما لبث أن صرخ صرخة عفوية بريئة، فور قدومه الحياة. ارتفع صخب الإناث وضجت منطقة "الأحمر العجوز" بالفرحة بمقدم الفرس الأحمر الصغير.

عبثت كل واحدة مع الأخرى، سرت روح الفرحة فى كل أفراد القطيع. اقتربت الحياة وئيدة من الفرس الوليد، ورفعنه إلى الماء ليتنفس نفس الحياة الأول. قبَّلته إحداهن. لونه أحمر ملتهب كأبيه، وشكله يبعث فى النفس، السرور، وحاله وأمه، مطمئنة، هدأت المساعدات وأخذن فى تجفيف العرق المتصبب على وجه الأم.

سوف تهيأ له مهداً آخر فى البر، وتأخذه لتعلمه السباحة إلى جوارها، كما تقتضى أصول تنشئة الأفراس الصغيرة، سوف تحمله فوق ظهرها، ويسير على الأرض ملاصقاً لها، بجانب رقبتها حتى تستطيع مراقبته، سوف يتقن السباحة جيداً بسرعة.

لما استبد به القلق، هبط إلى قلب البحيرة ثانيةً، والمطر على أشده، استقبله أحد شباب الأفراس الذى بحث عنه طويلاً فى كل مكان يتوقع وجوده فيه، وعاد يائساً إلى قطيع الأفراس يخبرهم بفشله فى

العثور عليه. لم تسعه الفرحة حين بشَّره الفرس بالذكر الفحل، الآية فى الجمال، الذى ليس له مثيل.

دنا من زوجته، لعق وجهها الذى مازال يتصبب عرقاً بلسانه الأحمر القانى. فرحت باهتمامه ورقته وشعرت نحوه بالزهو والامتنان. بدأ إحساسه المشحون بالقلق والتوتر والضجر، يزايله، وابتسم أخيراً. وتشبعت نفسه بالهدوء والارتياح.

انطلقت أصوات الأفراس الصاخبة تجوب سطح البحيرة معلِّنة فى سعادة ميلاد ولى العهد: "الفرس الأحمر الصغير"، راقصة رقصاتها الدائرية البديعة فى عرض البحيرة تحت المطر الكثيف المتساقط، تلهو برش بعضها البعض بالمياه بأفواهها الكبيرة كالدلاء.

obeikan.com

فى وصف الفرس

عمَّر طويلاً، عاصرته أجيال عدة من الأفراس، ولا يحيط بعمره الحقيقى أحد. ولم تحفل البحيرة بفرس مثله.

حدث أن تفشى بالبحيرة مرض عضال، كان من نتيجته، موت جميع أفراسها ما عداه، أحس بوادر المرض؛ فر من البحيرة مبتعداً عنها أقصى ما يكون الابتعاد، لما شعر أن الفترة التى قضاها خارجها كانت كفيلة باختفاء آثار هذا المرض، عاد ولم يجد أحداً من الأفراس على الإطلاق، فحزن حزناً شديداً على فراق أهله وأصدقائه من جماعة الأفراس التى كانت تعينه على تحمل تبعات الحياة القاسية، تجاوز أزمته وبحث عن أفراس أخرى فى المناطق المحيطة، دعاها لتعمر معه البحيرة الخاوية من جديد.

غاص فى الماء، أغلق خياشيمه، ضغط فارداً أذنيه بانبساط يجعلها مسطحة عكس رأسه مانعاً الماء من دخولها.

رفس رفسة قوية. بقى تحت الماء مدة، ثم صعد للتنفس، أصدر شخيراً هائجاً، صفَّر ليطرد الهواء القديم من رئتيه من فتحتى أنفه.

سار برشاقة فى الماء، حيث قضى معظم وقته فى هذا اليوم المشرق، ثم آوى إلى مخبئه السرى قبل حلول الظلام. ثم عاد إلى البحيرة، غمر نفسه فى مائها فترة قصيرة، تاركاً أذنيه وعينيه

ومنخاريه خارج الماء، جاعلاً من ظهره مهبطاً لطائر معين يتغذى على تنظيف جلده، لا يجرؤ أى طائر آخر غيره على الاقتراب منه، الكل يعرف مدى شراسته، وبعد أن مات هذا الطائر لم يقرب جلده طائر آخر، حزن على رحيل صديقه الطائر حزناً عميقاً، اكتفى بتنظيف نفسه بنفسه بحك جلده فى أى جسم صلب، أو أن تقوم بذلك إحدى زوجاته العديدات.

فى الليل، عند خروجه من البحيرة، ترك على الأرض آثاراً منتظمة الأبعاد، دمدم فى تثاقل، والعتمة والظلام القاسيان يوشكان على الحلول، عرفوا أنه جائع، وأنه يستعد لتناول طعامه، استعدوا له بوجبة كبيرة للغاية، بينما أغلب الحيوانات الأخرى ساكنة بسبب هبوط الليل. تثاءب مظهراً أنيابه الكبيرة الضخمة، ثم أكل الوجبة. سار مسافات طوال بحثاً عن وجبة أخرى أكثر مناسبة، لما عثر عليها، أفناها فى الحال.

قضى مدة طويلة أثناء مرعاه الليلى الهادئ، ثم عاد قبل طلوع الفجر بقليل إلى كهفه السرى على جزيرته المفضلة حيث قضى بقية يومه، بعد أن حصد غلال الفلاحين.

يعشق منطقة وسط البحيرة، يترك الحواف للأفراس الأخرى، يتنزه فى الغالب، فى منطقة فم البحيرة حيث تلتقى بالفرع الصغير المؤدى للنهر.

بظهوره تنخفض معدلات الحركة والصيد فى البحيرة. يسحب الصيادون قواربهم الصغيرة إلى الشاطئ قبل أن يغرقها ويقدمون له

وجبة دسمة من الأعشاب النباتية الغنية والكثيفة كرشوة، حتى ينجوا من شره ويأمنوا على حياتهم فى عرض البحيرة تحت رحمته، وعندما يقترب من الشاطئ يقدمون له وجبة كبيرة أيضاً حتى لا يفسد محاصيلهم التى تعبوا طويلاً فى زراعتها، بينما هم نيام بالليل.

دعوه "الأحمر العجوز"؛ بسبب لونه الأحمر الملتهب، وأزليته، وشراسته الزائدة. يقف وسط البحيرة، فاغراً فاه، مهدداً كل من ينزلها من أهل القرية.

ظهوره بمثابة النذير، تتوقف كل الأعمال فيها. ويمتنع الرجال عن الاستحمام فيها. وتكف النساء عن الذهاب إليها لغسل الملابس وتنظيف أوانى الطعام الفخارية. يكرهه أهل القرية؛ لنهمه الشديد فى الطعام؛ ولمهاجمته المستحمين فى البحيرة؛ وتحطيم قوارب الصيد؛ وحرمان النساء من نزولها لملء جرارهن وغسل أوانيهن وملابسهن أو حتى اللهو البريء فى الماء وترطيب الأجسام المرهقة.

فى حضرته الطاغية، تصدر الإناث صوتاً مثيراً مغوياً، تستجيب الذكور وتبدأ المعارك المميتة بغية التكاثر والتزاوج. يتصارعون أمامه، وتحدث معارك حامية بالأنياب المنحنية التى تستخدم لإحداث الجروح بالخصم، تتثاءب الأفراس بخبث بغيض لتقضى على خصمها، بدفع المياه نحوه، ويقف للفصل فى تلك المعارك وإقرار من الفائز وكلمته هى القول الفصل. يختار للأنثى شريكها القوى ويبارك دخولهما عش التزاوج، وسط تهليل الطيور المائية وهطول الأمطار، ووسط النباتات

الكثيفة، وأدغال البردى المتشابكة والمتشعبة، حيث تفضل الأفراس التزاوج.

قتاله مستميت، لكل من يقترب من مقره أو عائلته أو قطيعه، حتى الطيور والحشرات والحيوانات تخشى الاقتراب من هذا المكان أو الطيران فوقه، هو مكان مهجور من الجميع، لا يسكنه إلا هو وجماعته من الأفراس منذ قديم الزمان.

رقد على الشاطئ، وسط النباتات المائية الطويلة، نصف مختبىء، واندفع غاطساً فى الماء كالبرق، قتل أحد الصيادين من أهل القرية قبل أن يصل إلى الشاطئ بأقدام قليلة فقط. وانتهت هكذا المطاردة من قبله مبكراً. تعثرت قدما الصياد على حافة الشاطيء، لحق به الفرس، التقطه، وانطرح عليه بجسده القوى، ثم غطس به فى الماء عدة مرات حتى تأكد من موته تماماً. تركه. وفى الصباح، اكتشف الصيادون جثته غير بعيد من موقع اختطافه.

أخذ نفساً طويلاً وبقى تحت الماء. ثم جرى مسافة كبيرة على الشاطئ بسرعة كبيرة. قتل رجلاً أمام أولاده منطرحاً عليه، كان قد دخل أعماق البحيرة المحظورة، لم يستطع أحد الاقتراب، ثم قتل فتاتين بنفس الطريقة ولنفس السبب.

أشد وأقوى حيوانات البحيرة مقاومةً للطبيعة. مزق شباك الصيد. وقتل قطعان الماشية.

يرقد على الشاطئ، مزهواً مهدداً فى هياج واضح. يسحب ضحيته إلى أماكن غير معروفة، يستدرجها حتى تقع فى براثنه

الفتَّاكة، لم ينجُ منه أحد إلى الآن. يلقى الرعب فى قلوب محاربيه، يقتلهم الرعب قبل أن يحاولوا مهاجمته.

تشرق الشمس، يخرج الصبح من الأفق الشرقى على أهل القرية بينما هم منتظرون نتيجة اللقاء منذ الأمس، مع أن النتيجة محسومة لصالحه لكن الأمل يحدوهم ولو مرة واحدة.

ترتفع الشمس فى السماء، وهم ما يزالون واقفين قلقين متحلقين حول البحيرة من كل جوانبها. لحظات وتطفو الجثة بها كثير من الجروح. يخرجها فى هذا التوقيت تحديداً بعد أن أبقاها عنده فترة حتى يكون كل أهل القرية مجتمعين حول ضفاف البحيرة منتظرين نتيجة هذا اللقاء الحلم الذى يفسده عليهم دائماً.

يبدأ الفرس الصغير فى معرفة الكون عن طريق أمه التى تتولى تبصيره بالعالم وأسراره.

إثنان من الأفراس، ربما ذكر وأنثى، يسبحان ببطء، متعاقبين على مرمى حجر أو أقل من الشاطئ الذى تمتد فوقه شجرة جميز وارفة الفروع والأغصان والأوراق.

تبدأ عملية التزاوج بالصياح وحك الأنوف؛ تسعد الإناث، ويغمر الذكر نفسه بالماء؛ تتزين الأنثى وتتفتح داخلها كل الخلايا الحسية ويحكم العجوز بناء على مشاهدته وإحساسه بما يحدث أمامه.

ذات يوم، حاول أحد المغامرين قتله، جنَّ جنونه، واستشاط غضباً بالآلام التى يتلقاها من هذه الهجمات الجدية والقوية، نصب رأسه الضخم وانقض ناهشاً كل شىء حوله، واندفع نحو القارب

برأسه، انقلب أمامه فى سرعة مذهلة وفائقة محطماً إياه تحطيماً تاماً.

وما أن لحق به الفرس المجروح، تجنب هجومه بالحربة بعض الوقت، لكن الحيوان الغاضب انقض فى النهاية على المغامر، ولم يحمه منه شىء عندما رأى أن هجمته محتومة لا يمكن تلافيها.

ووقع عامداً فوق عروسين، ليلة زفافهما فى عرض البحيرة، قتلهما فى لحظة منقضية الوجود والزمن. وكان زفيف الريح يمضى وأزيزها يزمجر، انتحى نحوهما، فاغر الشدقين، وهو يرفع الموج من كل جانب، ويخبط الماء أمامه مزبداً.

كل الأشياء: حيوانات كانت أو قوارب، إذا هى دخلت المنطقة المسماة عرش "الأحمر العجوز" وسط البحيرة، غربت فى التوّ، وأصبحت أثراً بعد عين، وكأنه يسحر المكان ويسلبه طاقته وقدرته على المقاومة أو حتى الحركة أو التراجع.

كان عليه أن يعود مرة أخرى إلى أحد الذين سبَّبوا جرحه، حين رماه بسهم عاثر، ذات يوم، شك به صدره، وابتعث فيه نية الألم المبرح، يعلمه جيداً، ولن يدعه يمر أو يتركه لحاله.

لا يتآلف مع أى ذكر آخر، يتعارك دائماً، ويقتل عادة الأفراس المعادية له أو لقطيعه حتى تدين فى النهاية بالولاء له وحده فقط دون بقية أفراس البحيرة الأخرى.

سيد مجموعته، هربت كل الأفراس الضعيفة بعيداً عنه، لم تستطع الصمود أو حتى الوقوف فى مواجهته.

بعد أن كثرت ذريته من الأفراس الإناث، قتل كل الإناث اللواتى

أُنجبن له بعد وفاة أولاده الذكور؛ لذا تخافه أفراسه الأمهات، وتأخذ أفراسها الوليدة من الإناث بعيداً عنه، ولا تخبره عادة بمولدها ولا مكانها، وتخبئها فى البر، وتلعقها جيداً، ثم تعود إلى البحيرة، وتطعمها بحليب أثدائها اللذيذ الدافىء، وقليل من بناته الإناث اللواتى أفلتن من هذا المصير المحتوم.

مارسا الحب على شاطئ البحيرة، فشلا، هناك شبكات مائية قاتلة لا ينجو منها أحد. لما اقتربا من عرشه، هجم عليه الفرس، وأكل عضوه، أصبح ذلك الصياد عاجزاً تماماً، وظل إلى نهاية حياته يردد:" الحياة بدون المرأة موات، ومعها أشد عذاباً".

يقتل الأفراس المريضة من قطيعه ومن القطعان الأخرى حتى يخلصها من تعب الألم والمرض.

عندما يجدها تضرب صدورها بأرجلها الأمامية الأياسر بعنف، يعرف أنها مريضة.

فى الليل، يصطحبها إلى خارج البحيرة، صاعداً إلى القرية النائمة، يقتلها، مرتمياً عليها، تموت من فورها، يهرب منها آخر نفس للحياة، يتركها، تلقى مصيرها وحدها على أيدى أهل القرية -عند إشراقة أول صباح- الذين ينتفعون عادة بجلودها وعظامها وأنيابها، وأحياناً كثيرة عندما لا يكون مستعداً لأداء هذا الفعل أو غير متحمس للفرس المريض، يأمره بالخروج إلى خارج البحيرة، وألا يعود إليها ثانية حتى لا يعدى الأفراس الأخرى أو يؤذيها منظره، حيث يختبئ أو يموت تلقائياً من نفسه، هذا إن لم يقتله أحد صيادى القرية الذين يتتبعون

آثار الأفراس المريضة ويعلمون وقت خروجها؛ من الآثار التى تتركها على الأرض، يقتلونها قبل أوان موتها التلقائى.

إنه الشمس،

والضياء،

والقمر المنير،

فهو الذى يشرق فى أمه السماء،

ويبزغ عند الفجر فى أفق السماء الوردى،

وينتقل بعد ذلك إلى بيته الأرض،

حيث مقره الدائم،

فى بحيرته الأثيرة.

obeikan.com

رحيل المطر

إنه الشتاء!

فصل الحب والخير والجنون الممارَّس تحت زخات المطر المنعشة، تلك التى توقظ المشاعر وتلهب الأحاسيس وتفجر الطاقات وتحفز الهمم لدى أهل القرية، تقبل عليهم هذه الأيام بصخب صارخ يفض بكارة الهدوء المقيم فى استكانة.

أصبحت كل الأحوال هادئة، توقف المطر الذى هطل فترة طويلة، خرجت جماعة الأفراس، يتقدمها كبيرها، حاملاً الوليد الجديد على ظهره، وبجواره الأم، وتقترب منهما حثيثاً بقية الأفراس من الذكور والإناث التابعين لقطيعه الملكى المكوَّن من أكثر من مائة فرس نهر. يقودهم فى دورات متتابعة حول منطقته المفضلة، محتلاً المركز بينما تشغل الإناث مناطق الحواف.

انجلت صدمة جماعة الأفراس برحيل المطر الغزير الذى أقلقها كثيراً، وجعلها ساكنة ملازمة البحيرة زمناً غير معلوم الانتهاء، سوف تخرج من سجنها إلى فضاء الأرض الرحيبة؛ تبحث عن قوتها فى الليل، بعد أن أفنت نباتات البحيرة، أثناء فترة اعتكافها الإجبارى.

كان هو الوحيد القادر على الخروج إلى سطح الأرض، وقتما شاء، متجولاً، سائراً، فى مثل هذا الجو الكابح جميع أفراد جماعته.

بان جسمه الضخم، من خلال الماء، جدَّف بأرجله القصيرة،

اندفع إلى الأمام، يبدو الفرس "الأحمر الصغير" سعيداً بما يحدث فوق ظهر أبيه، غطس بعنقه إلى أذنيه الصغيرتين، صاح صيحات مرعبة، فإلتاع أهل القرية الآمنون، وابتسم الفرس الصغير.

من أكواخهم، خرج أهل القرية، فوجئوا بجماعة الأفراس، انتابهم القلق من منظر الأفراس الجائعة، خشية أن تخرج ليلاً بعد انقضاء المطر الذى عصمهم من خطرها الفتَّاك؛ تأكل محصولهم من القمح، وأن لم تأكله تفسده بتجوالها بأقدامها الضخمة فى عمق الليل.

وجدوا بقعة دم كبيرة بجوار الشاطئ، خمنوا ميلاد أحد الأفراس ليلة الأمس الصاخبة المطر.

عادت الحياة ثانية إلى القرية التى كانت ساكنة، أكواخها كانت مظلمة، لم تكن هناك نار مشتعلة ولا مصباح موقد. بعد أن لزم أهلها أكواخهم مخافة المطر الذى لم تشهد القرية له مثيلاً من قبل، رغم مرور مواسم شتوية عديدة صاخبة الأمطار، عليها، لكن هذه هى الأولى من نوعها التى انهمر فيها المطر بكثافة، فترة طويلة، متدفقاً بقوة غريبة، ليل نهار، ما أعاق عملية الصيد فى عرض البحيرة، ومنع الفلاحين من زراعة أراضيهم ورعايتها، وألزم الرعاة وقطعانهم الأكواخ والحظائر، وأوشك مخزون القرية أن ينفد. وذهب الصمت المقيم الذى كان يكسو الفضاء ويفترش الأفق، واعترف بعدم قدرته على الإقامة والمكوث فى مثل هذا الجو العاصف.

بعد رحيل المطر، عادت القوارب والمراكب تجوب البحيرة فى رحلات صيد نحو الأعماق، وتعود فى المساء محمَّلة بخيرات صيد اليوم

الواحد أو الأيام المتصلة، وانسجمت اهتزازات القوارب الخشبية مع مياه البحيرة، خرج الصيادون من الأزمة التى ألمت بهم، وغادروا حضن أكواخهم البسيطة التى كرهوا الإقامة فيها طويلاً إلى فضاء البحيرة الفسيح. واشتعلت ثانية الرغبة داخلهم فى ممارسة الصيد بعد احتجاب إجبارى دام طويلاً كاد أن يفقدهم هذه القدرة إلى الأبد، وعادت أخشاب المراكب والقوارب تثير الجلبة التى اشتاقت قلوبهم إلى سماعها طويلاً على مساحات الماء المزدهية، وغاب الهدوء المضجر المدوى فى فضاء القرية والبحيرة على السواء، عاد الفلاحون إلى رعاية مزروعاتهم، واصطحب الرعاة قطعانهم نحو المراعى الخضراء والروابى الممتلئة بالعشب والكلأ.

obeikan.com

obeikan.com

أهل القرية

تتناثر زخات المطر فى انسيال دافق عبر مساحات شاسعة من الأرض والفضاء، كان يسودها الهدوء. تثور السماء ويعصف الجو ويشتد الرعد ويحيل البرق السماء إلى نهار واضح الضياء. ويشق الصخب صمت البحيرة الآنى.

يصطادون، يتصارعون على سطح البحيرة، يتبارزون، هجم عليهم الفرس ذات مرة؛ قتل أحدهم؛ خافوا الاقتراب من البحيرة واعرضوا عن المبارزة على سطحها بعض الوقت.

عندما يبصر الصيادون منتصف البحيرة، يخشون تلك المنطقة المحظورة، يعرفونها جيداً، فيبتعدون عنها تلقائياً؛ هى شديدة التموج، والدوامات بها لا تهدأ، والرياح لا تسكن أبداً، فأطلقوا عليها: "عرش الأحمر العجوز"، مأواه، حيث يسيطر ويفنى، وكذلك عن جزيرته التى برزت بفعل ترسيب النهر من الطمى والغرين فى جوف البحيرة الفسيح، ويبتعدون كذلك عن الجزر الصغيرة المحيطة بها التى تعتبر ملكاً للفرس وقطيعه، حتى إن أوشك الصياد منهم أن يغرق؛ فالغرق الذى قد تكون بعده نجاة أفضل من الموت المؤكد. فهو مارد فى قوته حيث القوة هى عين الحق.

يتنكر لها دائماً فى صورة غير معهودة لأحد سواها، وعندما

يترك مكانه فى السماء ويهبط إلى الأرض للقاء حبيبته، تظلم السماء لغيابه ويعلم القوم أن القمر هبط للقاء الحبيبة وأنه سوف يمضى وقتاً طويلاً حتى يعود مرة أخرى بعد أن يفرغ من غرامه؛ لينير قريتهم الصغيرة القابعة على ضفاف البحيرة العتيقة.

وسط البحيرة جزيرة منخفضة غير متسعة، بها مستنقعات وبرك زاخرة بالأسماك والطيور المائية من كل شكل ولون، اصطادوا أسماكها بنشاط وحيوية، وتناولوها مشوية ومملحة، وزرعوا النباتات والخضراوات الشاطئية فى أرضها. وقضوا أغلب أوقات سمرهم بها. وهى الجزيرة الوحيدة فى وسط البحيرة التى أفلتت من سطوته فلم يرغب فى امتلاكها لسبب لا يعلمه أحد.

كلما زرع أهل القرية أراضيهم وانتظروا جنى المحصول، جاء الفيضان الثائر الهائج وأتلف الزرع وأفسد الأرض، وما أن تجف الأرض ويعيدوا زراعتها مرة أخرى، وينتظروا بشغف ولهفة هذه المرة جنى محصولها، تتكرر المأساة ثانيةً.

جف الضرع بعد أن عجزوا تماماً عن توفير غذاء الماشية والأغنام والماعز. ولم يحدث أيام الآباء والأجداد أن هلك الزرع وجف الضرع، بعد أن كانت الأرض سلة رخيصة للقرية كلها، وأصابهم اليأس من جراء ثورة النهر الجامحة المتكررة على أرضهم بعد أن انتهت الحيل التى ابتدعها قديماً الجد آناتم لإنقاذ قريتهم من براثن النهر حين ثورته الفيضية العارمة.

جاء موسم حصاد طيب، أكلت الزواحف نصف المحصول، وهجمت أفراس النهر بكثرة مروعة على النصف الآخر من محصولى القمح والشعير البرى اللذين قام أهل القرية بزراعتهما خلال موسم المطر الأخير، أفنتهما؛ أصيب أهل القرية بحال من الأرق الدائم؛ أحياناً يفوت العام ومن ورائه العام ولا تسقط قطرة ماء واحدة. وهذا العام، فاضت السماء بمطر وفير لم يحدث من قبل، مكنَّهم من زراعة محصولين لا محصول واحد، دون الحاجة إلى رفع مياه البحيرة المنخفضة إلى أراضيهم المرتفعة.

وحدث أن اصطاد أهل القرية إحدى إناث الأفراس من قطيع سيد البحيرة، المعروفة باسم "البيضاء"، ولم يكن هدفهم إيذاءها على الإطلاق، يحبون إناث أفراس النهر على الرغم من كرههم الشديد وخوفهم من الذكور خصوصاً "الأحمر العجوز"، زينوها وأطعموها، وصنعوا لها الأقراط من الأحجار الكريمة والذهب، ووضعوها فى آذانها، كما وضعوا الأساور فى قدميها الأماميتين. وقدموا لها طعاماً خاصاً فى مذبح بنوه خصيصاً لها فقط، ونحرت باسمها الذبائح الخاصة، واعتنوا بها بكل طريقة ممكنة، وحفروا لها بحيرة صغيرة خاصة بها، لكنها لم تقرب الطعام، وانخرطت فى حال من الحزن والبكاء الطويل لفراقها جماعتها من الأفراس، وأصاب القرية كلها الهلع على حالها، وماتت بمضى الوقت.

ثار لاختطاف إحدى نسائه المقربات إلى قلبه، وقرر الانتقام من أهل القرية المشاكسة.

وسط القرية بالقرب من ساحة الربة "مورا " المقدسة، دفنوها فى تابوت جحرى ضخم مزَّين برسوم ملونة جميلة تعبر عن أنثى فرس النهر وحياتها وظروف صيدها إلى وفاتها التى تعد المشهد الحزين فى هذه القصة التى كانوا يريدونها ممتعة لا مأساوية.

حين هبطت العواصف الرعدية الأخيرة على القرية قبل هطول المطر الأخير، لجأ أهل القرية إلى أكواخهم، ألجمهم الخوف الذى ملأ صدورهم، وحملت الرياح بين ما حملت حبوب اللقاح لأغلب الثمار والمزروعات، فجاءت فترة خصيبة فى حياة القرية لم تشهدها من قبل.

فى تلك الفترة الجبرية، سكن الرجال إلى نسائهم تبديداً لخوفهم القاتل من القادم المجهول، وفى الليل يكون الإنسان غابة تتوغل فى أحشائه، كان الخوف مشبعاً بالحب ومغرياً على العشق.

بعد فترة، اكتشفوا ازدهار الزرع ونمو المحاصيل بوفرة. وأنجب معظم نساء القرية بعد حادثة العواصف الشهيرة، بتسعة أشهر تماماً. فتقدم أهل القرية بالقرابين والابتهالات إلى ربة الحب والخصوبة الربة "مورا"، سيدة قريتهم الحانية، وأرباب الصيد البرية والبحرية على السواء.

فى الصباح، استيقظت القرية كلها بعد غفوة طويلة، قضاها أهلها فى النوم العميق والاسترخاء الطويل والراحة الجبرية. رحل

الظلام المستمر الذى خيَّم على القرية فترة طويلة، وأطل الفجر بوجهه الصبيح، وبزغ قرص الشمس الأحمر الكبير فى الأفق الشرقى من السماء؛ أنار الوجود المحيط بالقرية بعد حالة دائمة من القنوط والألم، اعتقد أهل القرية دوامها إلى الأبد، وانقشعت الأزمة أخيراً، فهل تعود القرية إلى سابق عهدها؟

obeikan.com

obeikan.com

مورا السمراء الجميلة

المرأة السمراء، الفارعة الطول، المهيبة، وجهها مضىء، ضياء لا تخطئه عين، جبهتها عريضة، عيناها كحيلتان سوداوان سواد ليل جميل ثائر، واسعتان دائريتان، خطتهما يد القدر بمهارة فائقة، حاجباها مزججان بلون لازوردى صارخ، خداها ورديان، وحمرة على وجنتيها وأسفل حاجبيها، شفتاها قانيتا الحمرة، وشامة سمراء بارزة تعلو شفتها العليا، أنفها طويل كالسهم يشق وجهها إلى منطقتين شديدتى الجمال، فمها حبة نبق قرمزية وأسنانها لؤلؤ منثور، بأذنيها قرطان كبيران، رقبتها طويلة، وشعرها ثائر منفرط الجدائل مغزول من حرير أسود فاحم. ذراعاها وكفاها وأصابعها دقيقة للغاية. زينة رأسها من الحلى الثمين من الذهب واللازورد والفضة. وهناك أوشام عديدة على جسدها.

انبثقت من ذاتها، تلك الربة العاشقة بقوة لم تتح لأحد من قبل. فى البدء استهلت وجودها، ومنه استهلت الكائنات والأشياء وجودها.

بينما كانت الأرض ما تزال فى عتمة الظلمات لم تتشكل بعد فى جوف المحيط المائى العظيم، صرخت صرخة فارقة فوضعت الحد الفاصل بين الحياة والعدم. بزغت من قلب البحيرة قبل وجود القرية فى تاريخ بعيد لا يذكره أحد كما تروى إحدى حكايات الأسلاف البعيدين.

منذ البداية، اتخذت هيئة امرأة سمراء جميلة ساحرة لم تغيرها كثيراً، وأخذت هيئة أنثى فرس النهر أيضاً، يتوجه إليها أهل القرية بالدعاء لإنقاذهم من الأحمر العجوز:"انقذينا من ذلك الوحش المفترس".

تظهر أحياناً فى هيئة حية ناهضة ترعى أبناءها كأم رؤوم تمدهم بكل ما يحتاجون إليه من غذاء يعينهم على النمو وتحمل ظروف الحياة القاسية إن حل الجوع وتوطن أرض القرية التى ترعاها؛ تتشقق عنها الأرض فتخرج لتطعم العالم.

سارت فى الأرض التى تشكلت بأمرها لتجد مكاناً من اليابسة تقف فوقه، وأضاءت الكون بنور عينيها السوداوين الجميلتين، عمَّه الضياء وانتشر فى أرجائه الفسيحة؛ فالحب كله بين يديها الجميلتين.

عندما أبدعت نشأة القرية وأهلها، سحر جمالها جميع الرجال وخلب أبصار الشباب؛ فهى المرأة العطرية المثيرة، الخلابة ذات العذوبة والرقة، مكتملة النضج بشكل ليس له مثيل.

تداعب عينيها بأناملها الصغيرة، وتتكىء بخدها البرونزى على كفها الدقيق، وتدبدب على الأرض بقدميها.

تحلم بأن يصل الغائب فى الوقت المحدد الذى لا تفارق فيه الوعى وتغيب عن الدنيا وتهلك القرية وناسها.

يدخل الرجال والنساء المقبلون على الزواج إلى باحتها الفسيحة حيث تصبغ عليهم حمايتها ورعايتها وتبارك دخولهم معترك التزاوج، وتتبع النسوة فى القرية التعاليم التى توصى بها كاهناتها العليمات

بفنون الهوى؛ للحصول على زواج خصيب ومثمر وممتع طوال العمر. يلتقى العشاق فى ظلها الكثيف، فينعمون بالحب والعشق والأمان.

تبدو كطفلة صغيرة تداعب أطياف الحلم بشص صغير، ترنو إلى اللحاق بما يمكن اللحاق به من أحلام النهار الغارب.

تخرج من الماء فى الليل، بعد أن يكون الكون مال إلى الصمت، تنهمر منها المياه مثيرة الصوت فواحة العطر.

فمن هفا هوى،

ومن هوى عشق،

ومن عشق اقترب،

ومن اقترب احترق بنار الشوق.

تسكن هيكلها المقدس، حيث تدير كبيرات كاهناتها شؤون عبادتها، فهن الوسيطات بينها وبين أهل القرية.

عيدها جميل وعظيم فى السماء وعلى الأرض وفى البحيرة على السواء، بدلت هيئتها وصارت فى صورتها الأنثوية الجميلة التى تحب أن تظهر عليها عادة، وأخذت كاهناتها فى إعداد ما يلزم.

يبكى الأحمر العجوز ويصخب داخل البحيرة حين يعلم أن هناك أحداً مع أمه الآن!

أشعلت الكاهنات المشاعل فى حضرتها ابتهاجاً بعيد مورا الجميل حتى تسعد نفسها وتهدأ وتقر عينها وتطرب بالاً، ابتداء من غروب شمس ذلك اليوم إلى مطلع فجر اليوم التالى.

تبدو شرسة ظاهرياً، ثم تلين عريكتها شيئاً فشيئاً، عندما

يضىء شىء وحشة نفسها وخلاء قلبها المشتعل.

تدعو المبشَّر من الصغار للقائها وتكون شهادة منها بقدرته المبكرة والفائقة فى المستقبل القريب. تجتذبها رائحة القادم البعيد، تراه بقدرتها الفائقة، وفى أحلامها الكاشفة.

تتسع نفسها، تصبح قادرة على احتواء العالم كله. تتخيله وترسم صورة له فى خيالها، شكله، طوله، لونه. تصبح قوة جذب للثاوى بعيداً؛ يجىء والشوق على أشده داخله وتقوى عزيمته ولا يفكر فى شئ سوى مورا الجميلة.

هى "الأحلى" بين نساء العالم، يعلم الجميع أنها دخلت موسم التزاوج، فيبدءون البحث عن سعيد الحظ الذى اختارته لهذا العام ليهب القرية الخصوبة، بعد أن كادت أن تهلك والخصوبة أن تجف داخل النساء، وأن يفقد الرجال الإحساس برجولتهم.

تبدأ القرية فى الاحتفال بموسم الحب الجماعى. فهى الأم الحنون، يصلون فى هيكلها المقدس، وتدعو العاشق قائلة: "اجعل قلبى يزغرد، وجسدى يفرح".

عندما بصقت بصقة من فمها الطاهر ذات يوم فى لحظة حزن ما، تشكل فرس النهر "الأحمر العجوز"، العدو اللدود لأهل القرية، تغضب منه دائماً بسبب المشكلات الكثيرة التى يسبَّبها لها على الرغم من حبها الكبير له بصفته الابن الوحيد الذى عاش لها.

امتلأ قلبه بالعصيان والتمرد والكراهية لأهل القرية مع بنى جنسه من جماعة الأفراس التى انبعثت من عينه الطافحة بالشر

واستمرت فى إرضاعه ليصبح عظيم القوة، شديد البأس؛ ليتمكن من القضاء على أعدائه شر قضاء، استغل هذه المنحة الربانية فى الشر وفتك بالبشر ولم يستطع أحد الوقوف فى وجهه، حتى أمه الطيبة لم تعد تقاومه بعاطفة الأمومة المتغلغلة فى صدرها.

إنها السبَّاحة العظيمة مع ابنها " الأحمر العجوز"، الشمس والقمر عيناه، هى نسمة النور التى ترفرف فوق الأرواح.

تعد رقصاتهما فى البحيرة سوياً من أروع ما يكون، حيث يرقص رقصات جانبية لاهياً مع أمه التى افتقد حنانها فترة طويلة من حياته محاولة أن تعوضه ما فاته، والدفاع عنه ضد الهجمات المعادية وكثيراً ما كتبت له التعاويذ المنجية والرقى الحامية.

وقف فى وجه أعدائه بفضلها لهباً يحرق كل من يحاول أن يواجه الموت حياً.

هى السمراء، الحبيبة، الأم، العشيقة، الخليلة، وغيرها من الصفات التى أطلقها عليها أهل القرية.

يتوجهون إليها بالدعاء قائلين:"سيدة أنت فى كل شىء، سيدة العذوبة والرقة والقوة والابتهاج، مباركة أنت، يا سيدة الأرباب، يا أمنا، يا من جئت بنا إلى هذا الوجود دون أن ندرى، بينما كنا ما نزال فى العدم، لقد خلقت لأجلنا الأشياء الجميلة كلها، شكلت كل شىء، ومرَّ الزمن الأبدى من بين أصابعك بعد أن تلقى إشارة من إصبعك كى يمر فى اتجاه الماضى، ثم يتوقف عند الحاضر، ويسرع الخطى لاهثاً نحو المستقبل القريب أو البعيد، يا من تعلمين الحقيقة المطلقة وتكتمين

السر حتى تجىء النهاية المبتغاة أو المكروهة، يا من تذهبين الكلل والملل عن نفوسنا وتضيئين غياهبها العتمى منذ آلاف السنين الغابرة فى القدم المنصرم، أيتها المبحرة دائماً نحو المكان المقدس الذى لا يليق بأن يكون لأحد غيرك، أيتها العرَّافة المقدسة التى من وطأة قدمها تجىء الحياة إلى أرواحنا وتدب فى الكون بأسره، يا سيدة الكون المتوجة على قلوبنا التى لا تتسع لفيض عطائك الربانى المعبَّق نفوسنا الحيرى بنور وجهك الوهَّاج. أيتها العليمة، القديرة، التى تضىء ظلام أرواحنا بنور اليقين، التى تهبنا القدرة على النطق دون خوف فى مواجهة كل شىء يعوق حياتنا. فتحت عينيك، فأطل النور الذى كاد أن يخطف أبصارنا، وعندما أغمضتهما ابتلعتنا الظلمة حتى كادت أن تهلكنا لولا أن تغمدتنا برحمتك، لقد ولدنا من دموع عينيك ولعاب شفتيك، يا من ترقدين فى ناووسك المقدس الذى يشع جلالاً وجمالاً يليقان بـ "أم الكون" و"رحم العالم"، يا من وضعت الحب فى قلوبنا والحياة فى أحشائنا، يا من ترسلين الحب برداً وسلاماً على أهل قريتك العاشقة لجمالك، تقبلى ابتهالنا المتواضع الذى لا يسمو إلى مقام أمنا المقدسة؛ فعزاؤنا الوحيد أننا لا نملك غيره، بينما أنت تملكين كل شئ؛ فتقبلي".

الخروج إلى البحيرة

تبدأ الاستعدادات لعملية الصيد بتجهيز كل الأشياء المطلوبة فى الليل، تعدها النساء عادةً، بينما يقضى الرجال أوقاتهم فى مثل هذا الموعد من العام فى التحضير لعملية الصيد وتدريب أنفسهم عليها وتذكر ما فاتهم وتعلم ما استجد من فنون جديدة فى هذه الحرفة المثيرة والمرهقة معاً.

يقسَّمون أنفسهم جماعات وفرقاً، كل منها مسؤول عن جزء ما من البحيرة لا يتخطاه صياد أو جماعة من الصيادين، وينظم مثل هذه الأمور شيخ الصيادين فى وجود سيد القرية وكبيرها أونان، الذى يقول لهم دائماً:" على الصياد الماهر أن يشعر بالجوع دائماً؛ فالجوع ينشط الحواس، ويزيل الكسل والخمول، والأسماك هدفنا عدو سريع وذكى، فيجب أن نكون أسرع وأشد ذكاء منها".

تبدأ الرحلة بالاستيقاظ مبكراً، وضوء الفجر يوشك أن يبزغ، بعد أن يكونوا قد فرغوا من مراجعة وإعداد ما يلزمهم لرحلة السفر البعيد فى جوف البحيرة المظلم.

مع أول علامة ضوء للفجر، يستقلون المراكب الشراعية والقوارب الصغيرة المصاحبة لهم، وتكون محمَّلة بالرجال والشباب والصبية، تستمر الرحلة فترة طويلة نحو الأعماق البعيدة المجهولة من البحيرة، وفى نهايتها تكون النجاة لعدد منهم أو الخاتمة لعدد آخر.

كل شىء كان جاهزاً مع طلوع الفجر، ومع وجود المرافقين والدليل، غادروا القرية صعوداً فى البحيرة على متن قارب طويل يتقدمهم؛ كى يصلوا إلى ممر مائى ضيق يتجه صعوداً عبر آجام الأشجار البرية الكثيفة.

كانت الحركة نحو قلب البحيرة بطيئة ومتأنية. يحدقون من خلال فتحة ضيقة بين الأشجار عبر الوادى الضيق. وحشرات كثيفة تطير فتملأ المكان وتظلم السماء، وإحساس بالدهشة والمغامرة يملأ قلوب الشباب والصغار ويلف المكان فى ثناياه.

لتمضية الوقت والاستعداد لطقوس الصيد المثيرة وتهيئة النفوس لما هو قادم من أطوار عديدة، تصارع الرجال لاصطياد ديوك الماء الذهبية اللون، ذات الريش المنفوش والحركات المثيرة، من الذكور والإناث على السواء، وصادوها بالشباك السداسية الشكل، فهم يتفاءلون بوجودها؛ إذ تسكن أدغال البوص والبردى وتطير على سطح البحيرة صادحة بأصواتها العذبة المميزة.

يصطادون الطيور والغزلان، يجمعون الثمار الناضجة من الفواكه وغيرها، فى طريق رحلتهم، وفى محطات توقفهم وانتظارهم، وأثناء راحتهم على بعض الجزر فى قلب البحيرة.

... يتصاعد الدخان من نيران الطهو، ويمتزج بالضباب البارد...

يحنى شيخ الصيادين رأسه للصلاة ويتمتم بكلمات قصيرة فى شكر الإله:" الشكر لك يا إلهى... أنت الذى جعلت الشمس تشرق...أنت الذى

خلق الأشجار والغابات بوفرة، ولم يصنعها أحد غيرك... أنت وحدك ولا أحد غيرك".

مياه البحيرة فى لون الأرض، القوارب تبدو عند حافة الأفق، فى انتظار موجة المد، فرصة لملء الجرار بماء البحيرة الزلال فى مثل هذا الوقت من اليوم.

obeikan.com

obeikan.com

المغامرون الأوائل

يحكون عن المغامرين الأوائل الذين غادروا القرية فى طريقهم إلى البحر ذى الأمواج الهائجة والمياه الشديدة الزرقة التى جعلتهم يطلقون عليه:"الأزرق العظيم".

كانت مياهه مسرحاً لرحلات بحارة أوائل أخذوا يجدون فى السير إليه فى طرق غير متوقعة عبر مدقات صحراوية كتب عنها الجد أناتم فى وصفاته السحرية للنجاة من الكرب العظيم والتيه وسط الصحراء.

يرشدهم طائر البحر إلى الطريق الصحيح. ففى الاتجاه الذى يسلكه تكون النجاة، وتكون الرحلة فى مأمن من كل خطر محدق.

بمضى الوقت واتساع الصحراء واشتداد قيظها المحرق، يبدأ الملل يتسرب إلى صدور الرجال. يستدعون ذكرى الأسلاف العظام. وتُتلى تعاويذ معينة وتُراق قطرات ماء معوَّذة من إناء حجرى صغير مثقوب من أعلى بثقبين يسمحان بمرور خيط مجدول من ذيل الأبقار، ويعلق هذا الإناء فى رقبة أكبر الرجال سناً. وتسحب قطرات الماء برفق على بردية ملساء أُجيد تسوية سطحها بدقة متناهية. تُسير المياه على سطحها. وفى المنطقة التى تتمركز فيها المياه، يكون الاتجاه الأصوب...

يقتربون من وادى الرمال العظيم. ينظرون إليه والرعب يملؤهم. يبتلعهم فى جوفه. وتكون النهاية..

كان أول المغامرين المتجهين ناحية البحر فى الشمال. كان الأمل يحدوه أن يصل إلى شىء حقيقى بعد السراب الذى تاه فى دروبه مدة تزيد على الأربعين عاماً.

حدَّق بصره الغائم فى وجه السماء. نظر بقوة إلى قلبها المحتقن بحمرة بنفسجية صائحاً:"ساعدنى. إنى فى أشد الحاجة إليك. صوتى يقلقك... يخرجك من صمتك الأبدى الأثير. يقوض مضجعك. أتسمعني؟! الصحراء تبتلعنى.. انقذنى.. إننى اختفى.. أموت..".

حلقت طيور سوداء، قبيحة الشكل، لها مناقير طويلة، وسيقان رفيعة طويلة، تكاد تقبض على كل من تسول له نفسه الاقتراب أو حتى محاولة المغامرة ولو فى الخيال.

obeikan.com

هجمة الأفراس

شىء مؤرق للغاية ذلك الذى تتعرض له القرية وأهلها بسبب الممارسات العدوانية التى يفعلها الأحمر العجوز وفريقه من جماعة الأفراس! أفعال يمارسها بجنون وصخب وعشق لممارسة الشر والأذى، بين الحين والآخر حسبما تروق له نفسه وتهيأ له مخيلته الضارية فعل ذلك وأكثر...

يعرِّف أهل القرية هذه الحالة التى يمر بها الأحمر العجوز بحالة الجنون المفاجئ للعجوز!!

يحلو له فعل الشر وتعطيل حياة أهل القرية فى البحيرة التى فيها حياتهم الفعلية، يقضون أغلب حياتهم فيها أكثر من القرية نفسها.

ما ينزل قارب كبيراً كان أم صغيراً حتى يملأ قلوب راكبيه بالرعب والخوف الشديد حتى يفقدوا الأمل فى النجاة، وما أن يعودوا إلى القرية بصعوبة، بعد جهاد مرير وصراع دامٍ بين الحياة والموت، يهجروا البحيرة والصيد إلى الأبد، وتتلبسهم حالة من الأرق وعدم النوم وذهاب العقل، بعد أن ذاقوا طعم الموت، وإن كان الموت أهون مما شاهدوا؛ فالموت يجىء مرة واحدة بينما مشاهدة العجوز فى كل مرة هى موت مقيت. ولا تمر إلا أوقات قليلة حتى تفيض أرواحهم إلى بارئها، تترمل نساؤهم ويتيتم أطفالهم.

تفقد القرية خيرة رجالها وشبابها واحداً تلو الآخر.

يتوجهون لأمه مورا الجميلة بالدعاء أن تنقذهم دون جدوى، فهو مصر ومستمتع بفعله ولهوه المضر.

حالة من الذعر والرعب تسود القرية..

تمتنع النسوة عن نزول البحيرة لغسل أوانى الطعام والاستحمام...

فى الليل البهيم، تأكل جماعة الأفراس بنهم محصول القرية من القمح والشعير...

يلف صوته المرعب فضاء القرية، يخاف الجميع ويلزمون أكواخهم خشية أن يقابلهم سائراً فى ربوع القرية باحثاً عن وجبة ليلية دسمة كعادته.

فى كل فترة من الفترات طالت أم قصرت يطارد هذا الفرس أهل القرية ويقتلهم و...و...

أونان لا يخافه ويخرج فى وقت الليل عسى أن يراه ويقتله ويحرر القرية من هذا الظلم المؤرق صباح مساء فهم أسرى رحمة هذا الأحمر اللعين.

يهلك البشر،

تتوقف الحياة فى القرية تماماً..

فماذا هم إذاً فاعلون؟

محاولة للثأر

فكر أونان العجوز فى حل لمشكلة اعتداءات الأفراس الشرسة؛ جهز فريقاً من شباب القرية وزوَّدهم بحراب ورماح مسننة متنوعة الأشكال ومتعددة الوظائف للقضاء على الأفراس اللعينة، صنعها بنفسه.

قال لهم محمِّساً:" تذرعوا بالصبر يا رجال وبالشجاعة؛ فالفرس العجوز ميت لا محالة".

آه يا للفرس الفذ الفريد، العاصف، القاتل، فى بيته الكبير: البحيرة، مارداً فى قوته حيث القوة هى كل شىء، وملكاً على البحيرة المديدة.

جلس أونان فى كوخه ينتظر عودة المحاربين من الشباب الأشداء، كانت الريح تنفخ نايها طليقة، وضوء القمر الشاحب، يلتمع حيناً ويخبو حيناً، يخرج صوت الفرس المرعب فى الفضاء، يفرقع كأنه سوط يتردد صداه على مسافة بعيدة.

قلق هو على مصير الشباب وولده نارام الذى خرج معهم لصيد الأحمر العجوز. يخشى أن يصيب أحدهم مكروه، حزين على حاله بعد أن تقدمت به السن وأصبح غير قادر على منازلة الأحمر اللعين.

إننى أقاوم بالقلب

حيث لا معنى غير القوة!!

فشل الشباب وعادوا من حيث جاءوا، اشتد غضب أونان، بينما أصر ولده نارام على قتل الأحمر العجوز. حاول الأب إثناءه عن ذلك، رفض.

بدأت رحلة البحث مرة أخرى عن الفرس بالقارب المجهَّز بكل ما يلزم للقضاء على هذا الفرس الشرس، بعد الفجر مباشرة، حتى يضمنوا عودته إلى وكره، أمسك أحد الصيادين المحترفين بحفنة من التراب ونثرها فى الهواء حتى يحدد اتجاه الريح، ليكونوا عكسها.

"الانتباه مطلوب، الحذر واجب، لا حديث بصوت عالٍ". هكذا قال شيخ الصيادين. كان الإبحار نحو الأعماق، ابتعدوا عن شاطئ البحيرة حوالى أميال، إلى حيث تعيش جماعة الأفراس على جزيرتها وسط البحيرة. تهوى حمامات الشمس وحراسة صغارها فى الشتاء. وبين لحظة وأخرى، تطفو رؤوس الأفراس وتغطس فى الماء. تشق أحجام كبيرة منها ماء البحيرة، تحدث دوامات تعكر صفو المياه الرائقة، يصعد صوت الصغار من أسفل. مازال الهدوء مسيطراً على الموقف إلى الآن.

خرجوا فى قواربهم يقذفونه بحرابهم المشدودة إلى القوارب بالحبال، واستخدموا رماحاً طويلة نحيلة مشدودة إلى القوارب بالحبال أيضاً. اشتركت عشرة قوارب فى مطاردة العجوز ومحاولة صيده.

استعد الرماحون المدربون الذين استقدمهم أونان لقتل الأحمر العجوز بعد أن فشل أهل القرية جميعاً فى قتله.

كانوا فى قواربهم الكبيرة والخفيفة حتى تسهل لهم الحركة ومناورة الفرس اللعين. خرج صوته من القاع، شملهم الرعب، ظهر

فوق سطح الماء، ازدادوا منه رعباً، حاولوا مهاجمته برماحهم وحرابهم التى انهالت داخل فمه، رمح وراء آخر، وحربة وراء أخرى، وأفلت رمح من يد أحدهم وسقط فى الماء نتيجة الاندفاع، وقع تحت قدميه، دهسه بشدة منفثاً الغضب وساخراً من هؤلاء الهواة الذين أرادوا قتله!

مات الرمَّاح على الفور من وقع الرعب والصدمة والوطأة، ارتعد الرمَّاحون جميعاً، انكسرت رماحهم، هربوا بقواربهم نحو شاطئ البحيرة بسرعة مذهلة.

ذهبوا إلى السيد أونان يخبرونه بفشلهم فى قتل العجوز، وموت أحد أفراد فريقهم من الرمَّاحين، وأنهم لم يعثروا على جثته فى أى مكان أو حتى بالقرب من الشاطئ بعد أن التقطوا أنفاسهم وانتظروا طويلاً للبحث عن الجثة قبل أن يعودوا إلى القرية على الرغم من الرعب الذى ملأهم.

فى اليوم التالي، خرجت الجثة إلى الشاطئ، بانت تفاصيل الوجه المغضون الملىء بالخوف لحظة القتل. ملامحه متجمدة. ولسانه خارج من فمه. والدم هارب من الشفاه التى أصبحت سوداء. وأصفر وجهه ونتأت عظامه. ووقف شعر رأسه.

خرجوا من أكواخهم فى اتجاه البحيرة بعد أن سمعوا بخروج جثة القتيل. هبط بعضهم لإخراجه، أصبح الماء عميقاً، غاصت الأقدام فى الأوحال، ماد بهم قاع البحيرة، أحسوا بها تفتح بطنها وتبتلعهم، اختفوا جميعاً عن الأعين؛ أصيب الجميع بالوجوم والدهشة!

obeikan.com

انتقام أهل القرية

فكر نارام بن آونان فى حيلة للانتقام من الأحمر العجوز. كانت العتمة كثيفة. نصبوا مصيدة مصنوعة من المعدن، طولها أربع أقدام، مليئة بالأوتار الحادة، غطوها بالتراب وبأفرع الأشجار والأعشاب فى المنطقة ما بين شاطىء البحيرة والحقول، داس الفرس الأحمر الصغير عليها، لم يستطع تخليص قدمه منها. سقط الفرس الأحمر الصغير فى الحفرة، وهربت كل الأفراس وتركته وحده يلقى مصيره المحتوم. فانهالوا عليه بالحراب الشوكية القاتلة. قتلوه.

تجمعت الأفراس فى أسراب ضخمة كأنها جزر عائمة. قُتل الفرس الأحمر الصغير، الابن الذكر الوحيد لعجوز الأفراس، كأن مكتوباً عليه أن يعيش وحيداً طوال عمره دون ذكر يرث مملكته!!

انتحبت الأفراس خوفاً على نفسها من الموت القادم المرتقب الذى لا يعلم موعده أحد.

احتفلت القرية بهذه المناسبة الغالية للانتقام من الأحمر اللعين. وزّعوا لحمه بينهم بفرح شديد غير مسبوق فى تاريخ القرية منذ أيام الجد آناتم.

عادت أيام المجد ولن تقوم للعجوز قائمة بعد ذلك، والبحيرة أخيراً بحيرة القرية لا الأفراس من الآن فصاعداً...

obeikan.com

تعويذة للنجاة

عندما رآه بعض الضعفاء من أهل القرية، رددًّوا التعويذة المنجية التى يتوجهون بها إلى إليه عادة حتى يفلتوا من قبضته الوحشية التى لا ترحم، فقالوا بنفاق واضح:"السلام عليك يا من تشرق فى السماء، وتبزغ فى الأفق الشرقي، مرحباً بك أيها العجوز، يا سيد السلام، يا من تحيا كل الكائنات برؤيتك، وأذرعها مرفوعة تحية لشروقك الوهَّاج، فتزدهر الأرض كلها لدى طلعتك المبهرة".

لم ترق نفسه لدعائهم. قرر الانتقام منهم جميعاً.

Oberkan.com

obeikan.com

غضبة العجوز

كان الوقت ليلاً، وضوء القمر خافتاً للغاية. فى البدء، خرجت صيحة ضعيفة، تبعتها أخريات ثائرات لفرس النهر. ارتفع جسده شيئاً فشيئاً بعد صعود وجهه المخيف فوق سطح الماء. بانت كل أعضائه، بينما أقدامه ما تزال غائصة فى وحل البحيرة.

الغضب أنا،

الانتقام أنا،

الموت لهم جميعاً،

صعد فى اتجاه الشاطئ، ومن ورائه أتباعه من الإناث والذكور فى قطيع تحميه القوة ويملؤه الغضب ورغبة عارمة فى الانتقام.

تذكر "نارام" ابن سيد القرية المبارزات السابقة ومحاولات قتل العجوز، تشجع، هجم عليه، نجا منه بأعجوبة.

سعد الوالد بشجاعة ابنه. وخافت الأم على وحيدها. تربص به اللعين، حاول قتله، ففشل.

احتفل أهل القرية بعرس نارام ومريام، وكانت ليلة من أحلى الليالى فى تاريخ القرية. واحتفل بليلة عرسه وعروسه مريام على ظهر قارب فى قلب البحيرة، على الرغم من التحذيرات العديدة التى سمعها بعدم الاقتراب من البحيرة فى هذه الليلة. كان متحدياً كبيراً للفرس. وأنجب بعد هذه الليلة ولده الصغير آشيل.

خرج وزوجته وولده الصغير فى نزهة فى عرض البحيرة، هاجمهم، قتل نارام ومريام، بينما دفع مهد آشيل طفلهما الصغير إلى الشاطئ.

صخبت البحيرة، بعد أن كانت هادئة لأعوام طوال. ارتفع الماء بضراوة فيها. ازداد لونها احمراراً بمضى الوقت. سكنت الكائنات داخلها ماعدا الأفراس. توقفت الطيور عن الطيران أو التحليق فوقها.

حملوا نارام ومريام بعد لفهما بالحصير والكتان، ودفنوهما فى مقبرة واحدة، محتضنين، فى الغرب الجميل حيث مملكة الحق والكل ذاهب. ووضعوا معهما آنية فخارية بها ماء وقليل من الطعام. هالوا عليهما التراب، وحدَّدوا موضع قبرهما بشاهد حجرى بارز.

بعد أن دفن ولده الوحيد وزوجته. بكاهما دماً حتى ابيضت عيناه. ماتت الأم أوشتاتا من الداخل. ولم تنطق.. فلم يعد يجدى الكلام. وتعزيا بطفلهما آشيل الصغير.

II

أونان

obeikan.com

obeikan.com

نبوءة

تُولد فى الظلام،
وتشق طريقك فى العتمة،
بشجاعة تحسد عليها،
وتكون نهايتك.

obeikan.com

obeikan.com

مناجاة

محاصر أنت فى الظلام،

وفى الوحدة،

تلهو بمداعبة الحلم،

ومناجاة الوهم،

كم هو كثيف،

هذا الظلام!!

يطبق على القلب،

فى غفلة من الزمن،

تحيا فى الموت،

ويهجرك اليقين،

وإلى أين أنت سائر،

نحو الوهم أم الحقيقة؟

obeikan.com

obeikan.com

النمر الأرقط

من بين أفراد القرية، أُخذ طفلاً صغيراً عمره أربع سنوات فقط من أسرته إلى المرتفعات الجبلية البعيدة خارج القرية؛ لإعداده ليكون كاهناً للربة "مورا" ربة الحب والخصوبة فى معبدها الكائن وسط القرية.

على مدى الأعوام الثمانية عشرة التالية، لم ير ضوء الشمس المقدسة مطلقاً، حيث عُزل داخل أكواخ حجرية على فترتين، مدة كل منها تسع سنوات، وتم تحديدها بدقة وعناية كى تمثل كل منها الشهور التسعة التى أمضاها فى رحم أمه.

الآن هو فى رحم أمه المقدسة: الحياة، لن يعرف سوى الحقائق ويمكن له مشاهدة الأشياء الغريبة وما لا يشاهده الآخرون، هكذا أصبح قادراً على الرؤية بنور البصيرة التى هى أقوى من ضوء البصر؛ لن يعجز عن رؤية الماضى وأصبح قادراً على رؤية الحقائق والأشياء تتشكل أمامه وكشف المستقبل والعالم المادى المخادع.

فى النهاية وبعد سنوات الدراسة والتجربة والتدريب والمكاشفة العرفانية الخالصة، أتت لحظة الحلم والحقيقة، مسرَّبلة فى روعة اليقين ونور الإيمان.

جاء الوحي، فى صباح يوم مشرق، ومع ارتفاع قرص الشمس فوق جنبات الجبال أُقتيد القادم الجديد إلى دنيا الربة فى ضوء الفجر؛ ليرى الجمال الخفى للعالم الذى لم يره من قبل، الجمال الغامض للأرض والسحرى للكون.

فى هذه اللحظة تأكَّد له كل ما تعلمه. تذكر الجد القديم والرجل المسن الذى يقف إلى جواره الآن- الذى قام بتدريبه وتعليمه أصول الحكمة والكهنوت.

لوَّح العجوز بذراعه عبر الأفق فى الفضاء الفسيح الممتد، شمَّ الشاب روح الحياة تنبعث داخله وعلم أن هذه هى اللحظة الحقيقية للبداية، وكما لو أن العجوز يقول له:" كما ترى، إن العالم كما أخبرتك تماماً، ليس هناك من جديد !! ".

استجاب الكاهن أو الساحر الجديد لقرع الطبول وإيقاعاتها الراقصة الصاخبة، وعندما تملكته "الروحانية والشفافية"، تناول بيديه جمرات متقدة، دون أن تصيبه بسوء على الإطلاق!

فى الأراضى المنخفضة بجوار البحيرة، أصبحت له القدرة على اكتشاف رائحة بول الحيوان على مبعدة خمسين خطوة، وتحديد نوع الحيوان الذى تبول فى هذه الأراضى المطيرة. واستطاع الاتصال بأقرانه من خلال الصفير بفمه، مقلداً النغمات المستخدمة بينهم، فبعث برسائل معقدة للآخرين من أبناء قريته عبر الوديان الفسيحة فى الأراضى الجبلية، مستخدماً الرياح فى نقل ما يريد نقله إلى الآخرين.

خرج فى الصباح الباكر لاصطياد الثيران البرية لا للتغذى عليها وإنما ليقايض الحطابين بها.

فى هذا المكان تحتفظ القرية بنقائها وآصالتها الفطرية وأسس حياتها التقليدية البكر.

كان والد أونان يعانى أصلاً من ضعف الإبصار، وفقد نعمة

البصر فى أخريات حياته؛ فصار هذا الأمر حافزاً له على دخول هذا الخط الخاص بعبادة الأسلاف فى القرية. وكانت الأشباح تتمثل له فى الظلام فى أشكال غريبة ومثيرة..

مع الوقت صنع متاهته بيديه..

انتصر على أشرس نمور الغابة فنعتوه بـ"النمر الأرقط"؛ نسبة إلى لون النمر الذى قتله أونان فى الغابة.

تخطى المائة بعشرة أعوام، لا وهن ولا لان، ولا ضعف حل أو ناء به، قوة لا تسحق ومهابة لا تلين.

اندفع بقاربه الخشبى الصغير فوق سطح البحيرة، يبدو مهول الطول، ألقى بالهلب على الشاطئ، هبط منه، سحبه إليه، غرس الهلب فى الأرض، تناول أشياءه منه ومضى.

رأى فيما يرى النائم، فى صغره، أنه يواجه فرسى نهر، أحدهما أسود اللون والآخر أحمر، عرف أن الآلهة اختارته لهذه المهمة المقدسة وأنه منذور للفداء.

تناوبه الصحو والمنام إلى جوار كوخه الخشبى الكبير وسط القرية، الذى صنعه من كتل الأخشاب وفروع الأشجار المعمرة وأنصاف جذوع النخيل، وبطنَّه ببعض الأعشاب البرية الصغيرة وطمى مخلوط بقش ورمال وألياف النخيل، يتقدم مدخله فكا فرس نهر وساقاه، كان الجد أناتم قد اصطاده وزيَّن به أجزاءً عديدة من القرية.

هو مركز القرية، يمر القوم بكوخه فى الصباح وفى المساء، يلقون عليه السلام، ويتناقشون معه فى مشكلاتهم؛ كأنه الحارس الأبدى الذى جلبته لهم الربة مورا من رحلتها البعيدة إلى الشمال حيث

يسيطر البحر بأطيافه الهادرة وأمواجه الصاخبة التى لم ينج منها أحد.

يحلو له أن يقف على حافة البحيرة منتظراً عودة المراكب والقوارب التى خرجت للصيد، خصوصاً فى اليوم الذى خرج فيه ولده نارام للصيد معهم للمرة الأولى فى حياته.

تتقدم نحو النهاية دون أن تقدر حتى على المقاومة السلبية. نحن لا شىء فى هذا الخضم الهائل المسمى بالحياة. نُذرت للفداء يا أونان. أعلم ذلك تمام العلم ولا مهرب من الفداء. الريح تسوق الزمن كما تسوق المطر، وأنت غافل عما يُحاك حولك. أعلم.

وشم ولده الوحيد نارام بوشم الأجداد عند ميلاده. يقول عن حبيبة القلب: أوشتاتا:"هى كل شىء فى حياتى حيث المرأة هى كل شىء، هى السيد وأنا المسود، هى قلبى النابض بالحب والحياة دوماً".

-كل الأشياء تفقد معناها بمضى الزمن.

-إلا القتل.

-الزمن فى تكالبه علينا، يفقدنا الإحساس بكل شىء.

-إلا ولدى نارام.

قدوم الغرباء

تتساقط أشعة الشمس فوق أشجار القرية العتيقة. هذا هو يوم الغرباء القادمين إليها من القفار البعيدة، يجيئون فى الليل عادة، يستقبلهم أهل القرية ويحسنون وفادتهم. يقضون الليل كله معهم فى المسامرة، يصفون لهم ما رأوا فى طريق مجيئهم وما الشىء الجديد الذى استحدثوه من الأسلحة.

من دلائل وصولهم، بزوغ نجم فى كبد السماء عند الفجر، أزرق فاتح صافى اللون، له حوافٍ أرجوانية ملتهبة ثائرة، وعلى الفور يضرب الفيضان الأرض الميتة، يحيل القرية كلها إلى جسد حيوى وفعال وقوى، إن كان من النوع الهادئ الجالب للخير لا الدمار والفناء.

تعد النساء كميات مهولة من الطعام استعداداً لعودة الغابئين. يكون أونان على رأس المستقبلين للقافلة الداخلة إلى رحاب القرية.

قصد كبير الغرباء شادو القرية مضطراً فى عهد الجد آناتم، آواه، عاد بعد ذلك ليقدم الولاء والهدايا من تجارة الغرباء. حدث ذلك منذ ألف عام. ولم ينقطع الغرباء عن القدوم إلى القرية فى موعدهم المحدد من كل عام.

يأتى الغرباء من الصحراء فى اتجاههم نحو الشمال. يقف أونان على القرية القصي. يعرفونه من قامته الفارعة، وهيئته المهيبة وحزنه المقيم. ترسل عيناه المتألقتان شرراً لازمه منذ مقتل ابنه الدامي. يبادلونه الأسلحة بالقمح والشعير البرى.

يتفحص السلاح الجديد الذى جاءوا به هذه المرة. يسعد به يديم لمسه حتى تصير بينه وبينه ألفة غريبة.

بنى مخزناً من أعواد البوص وحزم البردى وبقايا أعواد الذرة وسقَّفه بحصير مجدول على أنصاف جذوع نخل وكساه بطين مخلوط بقش. ملأ المخزن بالأسلحة من كل نوع: بلط، وسيوف، وسكاكين، وحراب، وكتل حجرية ضخمة تكفى لسد فم البحيرة.

فى حلهم وترحالهم، يقصدون كوخه دون غيره من أكواخ القرية الكثيرة. تنفسح المساحات بين الأكواخ وساحة القرية فتصبح خياماً متعددة تملؤها كلابهم وخرافهم وماعزهم.

تخرج نساء القرية فى جولة ليلية سائحات بنساء الغرباء ومرشداتهن لمعالم القرية العتيقة. وفى الليل يعرضون فنونهم..

يرحل الغرباء عن القرية فى رحلة أبدية نحو المصب!

obeikan.com

صمت مقيم

كان ضوء القمر مبهراً للغاية، وانتثر ضوؤه فى ثلاثة اتجاهات... قبضت على قرص القمر المرسوم على وجه البحيرة، وقدَّمته هدية لولدك نارام؛ أسرع بتقديمه لحبيبته مريام التى كانت معكما فى هذا المساء الوردى الملىء بالندى فى قلب البحيرة.

صمت مقيم يخيم على أونان، يرفض أن يغمض له جفن دون أن ينتقم من هذا الفرس اللعين.

-صوت القمر يناديك.أتسمع صوته؟

-أسمع.

قام على الفور صائحاً:" الفداء .. الفداء ..لا مهرب منه إلا إليه..".

قرر محاربة العجوز. أثناه الجميع خوفاً عليه لكبر سنه، حتى زوجته. رد عليهم قائلاً:"جدى آناتم مصور وهو يطعن الفرس بالحراب على إناء من الفخار المزجج، كلكم شاهدتموه. نطحه أحد أفراس البحيرة الشرسة، ذات مرة، فصل رأس الفرس عن جسده، كيف أخاف؟!!".

سوف تعود الحياة إلى البحيرة، سوف يمارس الصيادون عملهم فوق مياهها بلا خوف. سوف انتقم منه، سوف أمص دمه بفمى هذا. سوف يشرب كل أهل القرية معي. الكل مشارك، إنه يوم فرح نارام، سوف يمتد العرس ألف عام حتى ذكرى أبينا آناتم العظيم.

ما دمت موصولاً به؛ فلا تخش شيئاً بالمرة.

حطَّم قاربه وألقت به الرياح الأربع إلى الشاطئ، وعاد إلى القرية مهزوماً ملؤه اليأس والحزن وإحساس مرير بالفشل. فرحت القرية بعودته سالماً دون أن يصيبه مكروه، كانت فرحة زوجته أوشتاتا لا توصف، خشيت أن تفقد زوجها أيضاً بعد أن قتل الفرس ولدها الوحيد نارام وزوجته.

كان إحساسه أنه لو لم يكن غائباً عن وعيه فى اللحظة التى رأى فيها الفرس، وأيضاً لو كان واعياً لحظة ارتطامه بالشاطئ، لما عاد إلى القرية مرة أخرى، لن يستطيع أن يُرى الناس وجهه وكرّر المحاولة ثانيةً وثالثةً.

فى المرة الأخيرة، عُولج من عضة الفرس التحذيرية الأولى بخليط من بذر الجميز وحثالة الجعة وضُمد الجرح مدة أربعة أيام حتى برأ.

غلب عليه الصمت واعتكف فى كوخه لا يخرج إلى الناس ولم يُسمح لأحد بزيارته على الإطلاق. حاولت زوجته أوشتاتا إثناءه، رفض. قال له أهل القرية:" الفرس حذَّرك فى المرات السابقة، وإن كنت جاداً فى مرة أخرى، فيها نهايتك".

قالت له زوجته:"أخرج معك هذه المرة، الحياة دونك ليس لها معنى والخوف يتملكنى كل لحظة". رفض.

حزنت حزناً شديداً عن المرة السابقة؛ الموت مكتوب على الجميع مادام هذا الأحمر اللعين على قيد الحياة يتمتع بكل شىء بينما

هم غير قادرين على فعل أى شىء ومواصلة الحياة بأى شكل.

شيخاً تواجه الظلام بشراسة تُحسد عليها،

مطارداً ومهدداً بالموت كل لحظة،

تسكنك الوحشة والغربة والألم والحزن،

لا تقلق،

لا تبتئس،

لتكن النهاية المبتغاة.

obeikan.com

obeikan.com

عيد الأعياد فى ساحة الأسلاف

بحث الجد آناتم عن مأوى يجمع رفات الموت ويستر أخطاءهم الغفيرة؛ لم يجد خيراً من هذا المكان فى آخر القرية لهذه المهمة العسيرة، حيث تبدو النقوش مثيرة، كرسًّها أهلها لتبجيل الأجداد الموقرين.

فى عيد الأعياد من كل عام، يتقدمون فى اتجاه مقابر الأسلاف. تنطلق قبلة من أصغر شباب القرية لتنطبع على ثغر أجل فتياتها العذراوات. تشتعل نار الحب المحمومة بينهم أجمعين بحرارة شغوف ويحمى وطيس العشق المكبوت فى الصدور منذ أمد بعيد.

ابتعد أونان عما يحدث، انتحى مكاناً بعيداً، أخذ يتأمل ما يحدث أمامه فى صمت بالغ وعزلة قاتلة. انتابته رعدة أفاق على أثرها صائحاً:"لا نعرف إلى أين يذهب هؤلاء الموتى!". عذره القوم على حزنه على ولده الوحيد وزوجة ولده، يريد أن يذهب إليه ليراه، عقب فى تأثر:" قادم إليك يا نارام أيها الحبيب".

obeikan.com

الوداع يا أوشتاتا

أذوب عشقاً فى هواك،
اصطفتك مورا على نساء القرية بجمالك الأخاذ،
دفقة الحياة أنت،
مقدسة بين النساء،
جميلة فى كل شىء،
حين تسيرين،
حين ترقدين،
حين تتأوهين،
وحين تتجلين،
متجددة أنت دوماً،
حين رأيتك،
انبعث فحيح الحب الساكن فى قلبى منذ الأزل،
عبد بسيط فى مملكة الجمال العظمى: أوشتاتا،
تحية قلبى وروحى لك يا صاحبة الجمال الوهَّاج.

obeikan.com

obeikan.com

الخروج إلى إنكيدو فى الشتاء الأخير

تتدفق الأمواج حول جزيرة إنكيدو مهيبةً ذات دمدمة وهدير. تبعد عن شاطىء البحيرة حوالى سبعين ميلاً، وتقع فى قلب البحيرة الهائج.

هى جزيرة القرن الذهبى بالبحيرة، ذات الأرض الصلبة والحرارة المرتفعة. وبمجرد إزالة الأشجار العالية من مقدمتها، تظهر كتلة من الشجيرات الصغيرة الشائكة، فتجعل الدخول إليها أمراً مستحيلاً.

خرج فى الشتاء الأخير متدثراً بثيابه الثقيلة وأدواته العديدة وأسلحته الجديدة التى صنعها بنفسه والأخرى التى جلبها له الغرباء من الغجر. لم يدفعه شىء إلى الخروج فى هذه المرة التى عدَّها الأخيرة فى نفسه وفى حياته المديدة سوى الانتصار على الأحمر العجوز الملعون أو الموت أو التيه وعدم العودة ثانيةً إلى القرية لو فشل فى القضاء على الفرس.

يعلم أنه لن يستطيع أن يقتله أو حتى يقترب منه، يعلم أن الفرس محصن تماما ضد كل الضربات والمحاولات التى حاولت قتله مراراً؛ بفضل أمه الساحرة صاحبة الرقى والتعاويذ المنجية. يُساق نحو قدره ونهايته دون فكاك، إنه الواجب والفداء، لا مناص، يجب أن ينتقم، ربما ينجح هذه المرة، لعل وعسى، لا يحب أن يُتهم بعدم الوفاء أو الجبن. إنها محاولة لمواجهة القدر المحتوم...

تذَّكر ولده نارام، ميلاده، ووشمه بوشم الأجداد، ولعبه بين يديه، وحبه الكبير له، وزواجه من الجميلة مريام، وفرحته بآشيل أول مولود لهما، فاضت عيناه بالدمع وابتلت لحيته...صاح فى جوف البحيرة الساكنة:"أين أنت أيها اللعين؟! أجبني!...أين أنت...؟إن كنت فى السماء، إنى صاعد إليك، وإن كنت فى الأرض، إنى هابط إليك، وإن كنت فى البحيرة، هأنذا.. إخرج لى الآن".

دمدم مدمدم فى البحيرة، أحس أونان أن ثمة شيئاً يحدث، امتلأ قلبه بالشجاعة، استعد لمنازلة العجوز. مضى بعض الوقت، لم يحدث شىء.

نام، زاره الأجداد المبجلون فى المنام، بكى فى حضرتهم من عجزه وشكا لهم فجيعته، عسى أن يساعدوه، ربت جده الأعلى أناتم على كتفه، أخذه فى حنو إلى حضنه الدافئ، كفكف الدموع المنثالة من عينى خليفته البعيد الباقي.

اندفع قاربه الخشبى الصغير فوق مياه البحيرة، حتى يقيم فوق بحيرة الفرس الأحمر العجوز، لا يثنيه شىء عن الانتقام، فالموت أو الانتصار.

ألقى المرسى على الشاطئ، غرسها فى الأرض، سحب القارب إلى الشاطئ، أخذ أشياءه منه، ربطه فى الوتد الضخم، دخل إلى جزيرة إنكيدو، عبثت به الأمواج، حاول أحد الأفراس فكه، سبح فى البحيرة، أعاد قاربه، وضعه فوق الجزيرة، بمرور الوقت اتخذه فراشاً يقضى فيه ليله الطويل المؤرق.

خرج معى نارام وحبيبته مريام، سألنى:" كيف يغيب القمر عن قريتنا كل هذا الوقت؟!". ربت على كتفه، لم أجبه. كانت الزهور متوهجة والشمس تتدرج عبر أفق المغيب.

أرادت أوشتاتا أن تجيئه بين الحين والآخر تعلم أحواله وتخفَّف عنه آلام ضجر وحدته وتحضر له ما يريد من أشياء، رفض هذه الفكرة وأكدً لها أنه لا يريد شيئاً سوى الموت أو الانتصار.

حزنت على فراق الحبيب الذى لم تستطع أن تمنعه من منازلة الموت، لم يسعها فعل أى شىء سوى الدعاء له بالنجاة من براثن ذلك الوحش الغادر والصلوات والتقدمات إلى الربة مورا المنجية والحامية لأهل القرية جميعاً من ولدها المنتقم الشرير.

أخشاه بشدة،

هو المصير المحتوم الذى لا فكاك منه،

هو الموت الذى أساق إليه دون محالة،

هو النهاية المروعة شئت أم أبيت.

وفى النهاية،

أعود،

إلى بيتى الأرض كما بدأت.

دلونى عليه،

أوشك صبرى أن ينفد.

اختفى أونان، لم يعد يعرف أحد عنه شيئاً، لم يعد يرسل العلامات التى تدل على بقائه، عملت جماعة الأفراس بوحى من كبيرها أن تعبث بهذه الأشياء التى يرسلها أونان ليعلم أهل القرية أنه

بخير، حتى لا تصل إلى القرية وتضل طريقها.

ينتابه القلق أوقاتاً طوال. يقول لنفسه :

مازال القلب يقاوم،

سوف أطعنه مائة طعنة،

سوف أقتله مائة مرة.

تتحسس الظلام الكثيف الذى نسج خيوطه بضراوة حولك، ترنو إلى الماضى الذى لا يريد أن يفارقك بعين فاحصة حاشدة.. تتذكر مقتل ولدك وزوجته أمام عينيك وسط البحيرة، يبتلعك الظلام فى أحشائه الخاوية، يأكلك على الفور.

فى الظلام، قلبك يبكى الوحشة والحيرة والسكون والألم، ألم تمر بك مثل هذه اللحظات من الضيق واللوعة والأسى من قبل؟!

الظلام هو السيد، يطغى على كل شيء، يحيل كل الأشياء التى حولك إلى صخب هائل ينهش أحشاءك ولا يبقى منها أية أشلاء.

أعلم أن حياتى نقش بسيط على وجه الزمن، يفيد أنى مررت من هنا ذات يوم.

الخلود هدوء،

والأبدية صفاء.

السكون يفضى إلى الموت البطىء،

أين أنت أيها اللعين؟!

الغيوم تغطى السماء، ورذاذ دافىء يتساقط على شفتىَّ، ونداء من القرية يدعونى إلى العودة، لكن ما باليد حيلة، الاختفاء... الفناء... والغروب عن هذا العالم، أرى ولدى نارام مقترباً يحتضن أباه القتيل،

هاهو يحنو على أبيه القتيل الذى راح دفاعاً عن دمه ودم أهل القرية، ولم ينجح، العذر والمغفرة يا ولدى فلم أفرط فى شىء.

تحملك الأنواء إلى رحلة غامضة لم تكن بالغها بعد كل هذا العمر المديد! سوف تحملك رياح الشوق إلى الحبيب بكل توكيد.

تعلم أن الموت القادم لن يحصد روحاً إلا روحك، كل الأشياء تدل على ذلك، قرص الشمس الساقط فى حمرة الغسق، إنه يترصدنى، ليس بيدى حيلة أخرى للمواجهة، لم ينج منه أحد إلى الآن، إنه القدر، لكنه ثأر ولدى ولا مهرب من الفداء، سوف يتخطفنى ذات مساء، سوف أصمد، أقول له:" لا" هذه المرة.

صدر صوت مغو ساحر أخَّاذ يقول بنعومة ورقة:" تعال... تعال... تعال...". قالها ثلاثاً، لمَ أعقب. ثم ظهر طائر محلقاً فوق رأسى، هاأنذا مستعد للقياك، فى أشد الشوق لرؤية ولدى، لا تقلق، ليس هناك من هروب، إنى معد لهذه اللحظة قبل أن أوجد، إنى قادم إليك.

أصبحت روحه معلَّقة بين السماء والأرض، صاح:"خلص الجسد المعذب من آهاته والروح المنذورة للفداء من ألمها الأبدى، إنى أعلم أن الموت يترصدنى فى الأعماق؛ إنه الفضيلة الكبرى التى يهفو إليها قلبى".

صاح منادياً أوشتاتا قلبه الثاوى فى صدره. لم يكن هناك فى القرية من يجيب، انتفض، انتابه قلق فادح، شىء مؤلم أن يموت وحيداً فى هذه الجزيرة المهجورة!!!

هربت روحه من جسده، وارتفعت لتلتحم بأمها السماء فى رضاع أبدى ليس من ورائه فناء أو اختفاء. برزت كقرص برونزى

صاخب ملىء بالمأساة فى الشرق.

انتابتها حيرة فى الليل، لم تنم، قامت فزعة من فراشها، انقبض قلبها، أحست أن مكروها أصاب حبة القلب، اتجهت إلى البحيرة وحدها فى الليل، أخذت تصيح:" أونان... أونان...". تجمع أهل القرية، أخبرتهم بإحساسها، لم يصدقوها، هدؤوا من روعها.

قلقة على مصير أونان. أعلم. لم يحضر منذ أمد بعيد!! أعلم. ولم يعد يرسل العلامات التى كان يرسلها حتى أطمئن عليه. أعلم. أيكون الأحمر اللعين قد افترسه؟!...

أين جثته إذاً؟!

هل حلَّق طائر الموت الرفراف فوق القرية؟

هل فشل صوته الحزين المجهد فى الوصول إلى قريتنا البعيدة؟

خرجت إلى عمق البحيرة فوق قاربه الصغير، آخر ما تبقى لها من رائحته، حذرها من قابلها من نزول البحيرة ليلاً حيث تنشط الأفراس وتكون فى قمة اليقظة والشراسة والاستعداد للقتال، لم تعبأ بكلامهم. ردت غاضبة:" مازلت شابة عفية، الخوف أكل أرواحكم".

الهواء يضرب أكواخ القرية فى صمت قاتل. الخوف يسيطر على كل شىء والرعب يملأ المكان، والحياة فى القرية لا تُطاق.

دنا القارب من وسط البحيرة. كانت دوائر المياه تضيق حولها باستمرار. تملكها الخوف. تلاشى كل شىء حولها. لفتها زوبعة قاتلة. أفاقت منها متمِّتمة فى صدرها:"إنه قادم... إنه...". هيأت نفسها الخائفة للقاء الوحش العجوز. ها هى تواجه الموت... تواجه اللعين

وجهاً لوجه. التصق لسانها بسقف حلقها. خرج صوته غالباً كل شيء.

ذات صباح، طفت جثته بالقرب من الشاطئ، التقطها أحد الصيادين، عاد بها إلى القرية. حمله الماء إلى الشاطئ، وأحاطت به الزهور والورود.

ظل الغرب الذى ارتحلت إليه روح أونان الطاهرة، مظلماً وقتاً طويلاً، خيَّم الظلام على القرية، فترة طويلة.

تتساقط أوراق الأشجار مثقلة بالدمع على فراق أونان المأساوي!

obeikan.com

obeikan.com

III

أوشنتاتا

obeikan.com

obeikan.com

فارسة النساء

أوشتاتا

المرأة القوية، لم تطلق عند ميلاد ولدها الوحيد نارام الذى أنجبته فى سن متقدمة، وقامت بعد مولده بدقائق إلى عرض البحيرة، تساعد زوجها أونان وتجهز قاربه للصيد.

ثمة أشياء تبدو مفارقة للعادة، وأخرى ملائمة للذكرى. لا أريد أن استسلم لمرارة الحزن تطويني. أصبح كالعصفور الحزين بين يديك. فى الصحو والمنام. العالم أصبح مكاناً عديم المتعة.

يخرج النهار من فم الليل. يخرج الليل من بطن النهار. وفكاه ملطختان بدماء ولدى وعروسه وزوجى الغالى أونان. يمرح فى البحيرة، بينما أنا حزينة على الرحيل، أريد أن ألحق بهم، الحياة ليس لها معنى بدونهم، فالفراق قاتل لا يرحم!!

آشيل الصغير هو الوحيد الباقى من رائحة الأحباب، يأمل أهل القرية أن يكبر وينتقم من العجوز الذى قتل أباه وأمه وجده، أحنو عليه وأحزن للمصير الذى ينتظره، لابد أن أقوم بهذا الدور نيابة عنه. قررت الخروج لملاقاة العجوز، حاول آشيل الصغير منعى، يخشى أن أُفقد أنا الأخرى ويصير بلا عائل أو سند.

تمر بحذر حتى تفاجىء العجوز فى الغابة أو فى المستنقع بجوار البحيرة. جربَّت صيد الفخاخ البرية، فنجا. وأخيراً قررت الخروج لملاقاته

فى مملكته المقدسة: البحيرة والتصارع معه وجهاً لوجه.

أتخرجين فى النوة والرياح قاتلة؟!

أخرج مهما كانت الأسباب فالثأر ثأرى وحدى ولا أحد غيري؛ أنا الأم الثكلى والزوجة الأرملة...

تخيلت أنها تسمع ضربات قوية لمجداف قارب يهتز فوق سطح الماء. قالت لنفسها إنه أونان الزوج الحبيب جاء للقائها فى عمق البحيرة. لم يكن هناك أحد على الإطلاق.

جمعت كل الأشياء معها: الحراب، والأهلاب، والخطاطيف، والحبال، والرمح المزود بشوكة واحدة والحبل وقصبة الرمح التى تنفصل لحظة إصابة الحيوان وتزيد من درجة تألمه، والرماح ذات الشوكات المتعددة.

الرمح ذو الشوكتين نصله من النحاس والعاج، ويثير غضب الحيوان، يفتح فمه فتسهل عملية إصابته، وتساعد السهام على اكتشاف الأماكن التى يختفى فيها الفرس.

الحربة لمطادرة الفرس. حربة ينفصل فيها الخطاف عن الساق، ونوع يثبت الخطاف مع الساق؛ تستخدمه فى نهاية عملية الصيد للإجهاز على ضحيتها. حبل متصل بالخطاف يتدلى بامتداد ساق الحربة إلى نهايتها تقريباً وثبتَّته إلى خشب الساق بست لفات، واللفات غير موثوقة بشدة حتى لا تعرقل مهمتها عند القذف، سوف تلجأ إلى إحكام الحبل عند الانتهاء من الصيد حينما تتهيأ للإجهاز على الفرس.

استخدمت شركاً متحركاً عبارة عن سهام متصلة ببكرة، كما استخدمت رمحاً له شفرة عريضة مسننة حادة وشوكتان على الجانبين،

وحبل قوى طويل متصل بطرف الرمح العلوي. ويمر هذا الحبل فوق قصبة الرمح.

أتقن رفعة يد صياد فرس النهر، لن أدعه يفلت هذه المرة. لا تقلقوا علىَّ. إنى أوشتاتا حفيدة آناتم الجد العظيم، وزوجة أونان الحبيب الراحل، وأم نارام الفارس القتيل...

تقودها غريزتها الخفية عبر تلك البحيرة الشاسعة.

يهاجمها من كل جانب.

ظهر الحيوان المفترس فى المياه، كاد أن يفلت الحبل من قبضتها، ظلت هادئة ومتماسكة وهو أمامها. عرفت مكانه، أغرته بالقضاء عليها بسهولة، أهدتها العوامات المثبتة بالحبل إليه، رفعت رأسها، ترقبت ظهوره. كان يعوم، يتغالب، يغوص، ينفث، يعبث بكل ما حوله.

يسير الفرس إلى الأمام فقط، هاجمته من الخلف. صوبت نحوه حربة قاتلة. طاشت هذه المرة.

نجحت حربة أخرى فى إيذائه. تركت الحربة مغروسة فى جسده حتى ينهكه التعب من جراء دمائه النازفة. حاول الصعود إلى سطح الماء ليتنفس، سدَّدت نحوه الرماح لتصيبيه مرة أخرى، طعنته وغرست حربة تلو الأخرى فى فك الفرس وفى أنفه حتى تمنع عنه عبير الحياة ولا يستطيع الغطس. أرهق بضربات عدة، خارت قواه.

أمسك الخطاف بالفرس. سحبت ساق الحربة. ظل الفرس مشدوداً إلى يديها بفضل الحبل المتين المربوط به الرمح إلى المركب. سددت عشر ضربات نحوه. وجهت الأولى منها إلى أنفه، قطعت

فتحتيه. أصابت جبهته، قسَّمت رأسه الضخمة كالمطرقة، فى الضربة الثانية. أصابت ذقنه، فرقت لحمه، فى الثالثة. فى الرابعة، أصابت الرأس ومؤخرتها، قطعت شرايين جسده. فى الخامسة، أدخلت الحراب فى جبنيه، كسرت ضلوعه. فى السادسة، أبقتها فى الضلوع، قسمتها. فى السابعة، أصابت بطنه، فتحتها، قطعت أطرافه، فتحت خصيتيه. فى الثامنة، أصابت مؤخرته، فتحت فخذيه. فى التاسعة، أصابت رجليه الخلفيتين. فى العاشرة، أصابت مخالبه، قدميه الأماميتين،...

خرجت إلى الشاطئ، متعبة، مجهدة، هدها الإعياء من مهاجمة العجوز، ينتابها الشك والحلم والهذيان، لا تعلم إن كان العجوز مات أم لا. هل قتلته بالفعل أم هو الذى قتلها؟

ألقت بجسدها على الأرض متحدة بأمها، لفها شعور طاغٍ بالفرح، تبدل إلى حزن عميق، بدأت تتذكر الأحباب الراحلين: أونان، ونارام، ومريام، انثالت الدموع من عينيها الخابيتين، رحلوا جميعاً وتركوها وحيدة، تذكرت الصغير آشيل الباقى من رائحة الأحباب، سعدت، دمعت...

حلقت طيور سوداء فوقها، ملأت سطح البحيرة، أسلمت الروح لا تدرى إن كان العجوز قد مات أم لا.

مختتم

obeikan.com

احتفل أهل القرية بتخلصهم من الأحمر العجوز نهائياً، وبدأت السعادة تغزو نفوسهم الحزينة، سوف يعاودون الصيد والاستحمام والتنزه فى البحيرة، كل هذا بفضل الفارسة الراحلة أوشتاتا التى خلصتهم منه إلى الأبد، واختارتها الربة مورا إلى جوارها. قدَّموا القرابين لها ترحماً عليها وأقاموا الصلوات باسمها تخليداً لذكراها الطيبة. وبنوا ضريحاً لها فى ساحة الأسلاف المقدسين.

صرخ الصغار الذين كانوا يستحمون فى البحيرة حين شاهدوه، هرعوا إلى أهل القرية يخبرونهم بما شاهدوا.

فى الصباح، حملت لهم الأمواج جثة أول الصيادين الذين نزلوا البحيرة للصيد بعد انقشاع الغمة، ميتاً بنفس الطريقة التى يقتل بها العجوز. تعجبوا وشكوا فى حقيقة نهاية العجوز، ملأهم الرعب.

أكدَّ لهم أحد عجائز القرية أن العجوز لم يمت، وأنه لا يموت أبدًا، قد يحدث هذا أحياناً، وكم مرَّ بنا من تجارب ومحاولات للقضاء عليه، لكنه لا يلبث أن يعود من جديد بنفس القوة والحيوية التى كان عليها، متجدداً ولافظًا كل ما مضى.

لا يموت أبدًا، دائمًا يوهم المرء نفسه بذلك، بل يتمناه فى قرارة نفسه حتى يتحرر من إساره، لكنه لا ينجح فى ذلك أبدًا، قد ينجح فى تمنى ذلك بعض الوقت، لكنه سرعان ما يلبث أن يفيق من حلمه على الحقيقة المؤكدة التى لا تتغير أبداً.

أهرام الجيزة

مارس ١٩٩٨

إصدارات

دار نشر أنباء روسيا
Russia News
www.russiannewsar.com

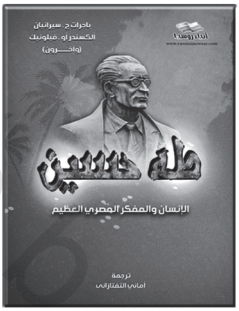

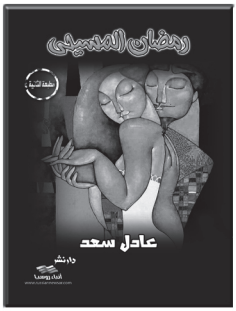

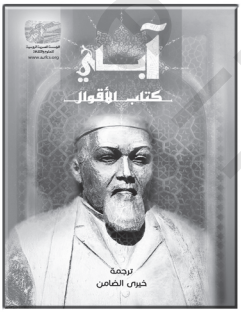

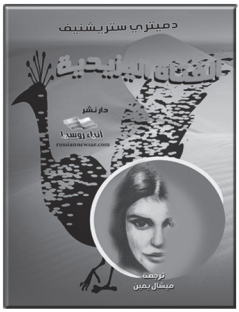

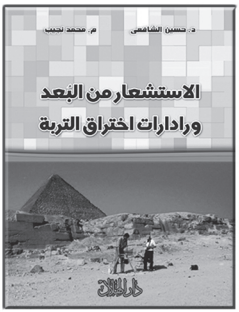

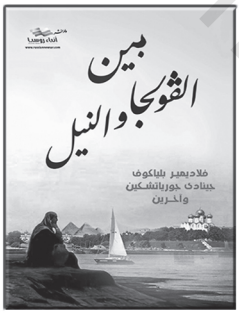

أنباء روسيا
Russia News
www.russiannewsar.com

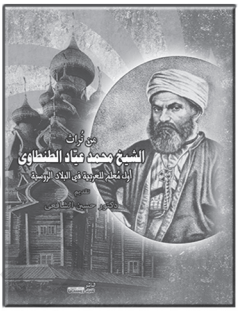

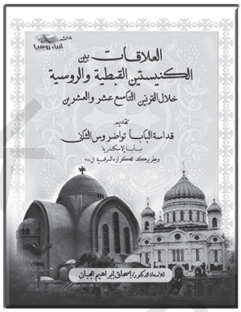

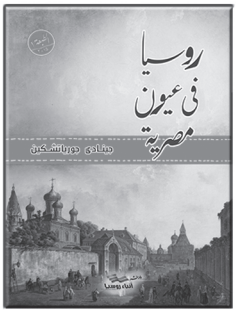

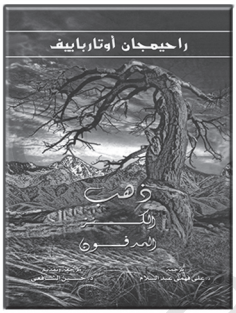

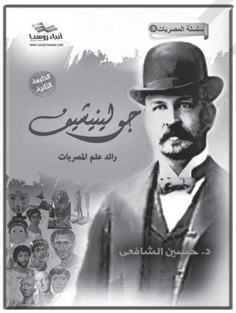

أنباء روسيا
Russia News
www.russiannewsar.com

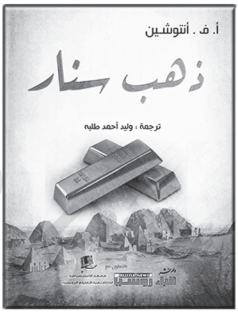

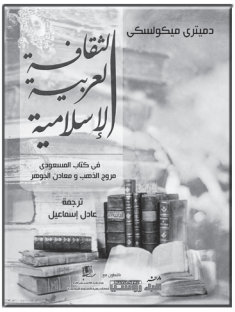

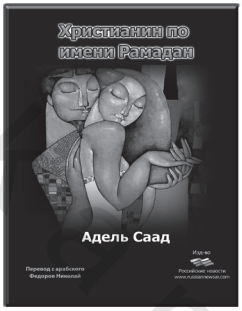

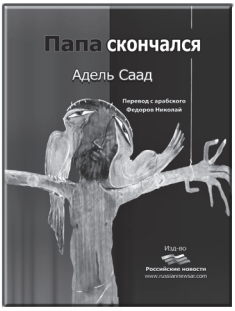

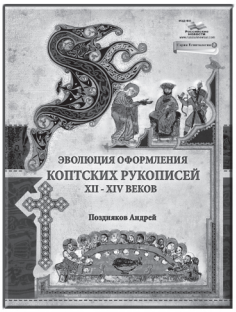

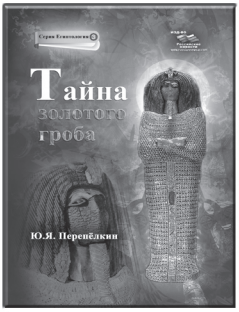

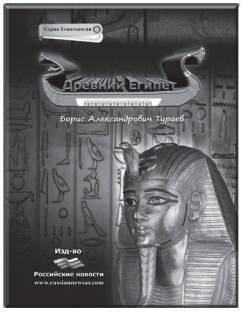

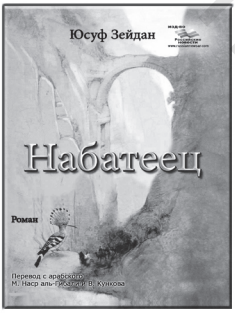

دار نشر

أنباء روسيا
Russia News
russiannewsar.com

www.russiannewsar.com

والمؤسسة المصرية الروسية

للثقافة والعلوم

www.a-rfcs.org

رئيس مجلس الإدارة ورئيس التحرير

د. حسين الشافعى

obeikan.com